بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

كلية اللغة العربية

الأَدَبُ الأَندَلُسِيّ

فضيلة الشيخ

د. محمد بن هادي المباركي

يطلب من خدمة الطالب

الحياة السياسية في الأندلس:

تقع بلاد الأندلس في الجنوب الغربي من قارة أوروبا وتعرف في عصرنا (بأسبانيا والبرتغال) ويحدها من الغرب المحيط الأطلسي ومن الجنوب مضيق جبل طارق وجزء من البحر الأبيض المتوسط ومن الشرق البحر الأبيض المتوسط أما من الشمال فتحدها فرنسا التي كان العرب يطلقون عليها اسم : " بلاد الفرنجة " .

وقد أطلق العرب على تلك البلاد اسم الأندلس ، ويقول المَقَّـري في كتابه نفح الطيب(إن أول من سكن في الأندلس على قديم الأيام فيما نقله الإخباريون قوم يعرفون بالأندلش ـ بالشين المعجمة ـ بهم سُمي المكان فعُرِّب فيما بعد بالسين غير المعجمة فقيل الأندلس).

وقيل إن القبيلة الجرمانية التي كانت تسكن شبه الجزيرة كانت تسمى(الفندال) وسمي الإقليم(فنداليشا) وعُرِّب إلى الأندلس.وقد حكم المسلمون بلاد الأندلس أكثر من ثمانية قرون من الزمان حيث تم فتحها سنة ٩٢ هـ وخرجوا منها عام ٨٩٨هـ.

ومن المعروف لدى المؤرخين أن الأندلس قبل الفتح الإسلامي كانت تحت سيطرة (القوط) وهم طائفة من النصارى الأسبان وأن الوضع فيها كان مضطرباً فشجع ذلك الوضع موسى بن نصير والي المغرب من قبل الأمويين على فتحها فندب لهذه المهمة قائده الشجاع طارق بن زياد الذي نزل بجيشه في شعبان عام ٩٢هـ في المكان الذي سمي فيما بعد باسم هذا القائد (جبل طارق) ثم انطلق من هناك يفتح الأندلس وينتصر على حاكمها(لذريق) ثم توالت الجيوش الإسلامية على الأندلس وقدم موسى بن نصير وأتم فتحها وبذلك دخلت الأندلس في حكم الإسلام وأصبح لها شان عظيم في التاريخ الإسلامي وأنجبت من العلماء والأدباء العدد الكبير، وقد انتهى موسى بن نصير من فتح الأندلس وغادرها إلى دمشق في ذي القعدة من عام ٩٥هـ بعد أن ولى عليها ابنه عبد العزيز.

وقد مرت الأندلس طيلة تلك الحقبة الطويلة التي عاشتها بمراحل سياسية متعددة تفاوتت فيها من حيث القوة و النفوذ ويمكن أن نجمل تلك العصور السياسية فيما يأتي:

١) عهد الولاة:

بعد الفتح الإسلامي للأندلس تعاقب على حكمها مجموعة من الولاة التابعين للدولة الأموية فعرف ذلك بعصر الولاة منذ سنة ٩٢هـ إلى ١٣٨هـ وقد بلغ عدد الولاة ١٨والياً أولهم عبد العزيز ابن موسى بن نصير وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي تغلب عليه عبد الرحمن الداخل ومن أشهر الولاة في تلك الحقبة عبد الرحمن الغافقـــــي.

٢) عصر الدولة الأموية في الأندلس:

بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق عام ١٣٢هـ وما تبع ذلك من فتك العباسيين بالأمويين فرّعبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان من الشام إلى مصر إلى شمال أفريقيا متخفياً حتى وصل إلى مدينة طنجة فاستطاع من هناك أن يتعرف على أحوال الأندلس وماكانت تعيش فيه من فوضى واضطراب فأرسل مولاه بدر إلى الأندلس للاستطلاع ودراسة الوضع، ثم قدم إليها في ربيع الأول سنة١٣٨هـ واستطاع بعد معارك كثيرةأن يهزم والي الأندلس يوسف ابن عبد الرحمن الفهري وأن يؤسس إمارة أموية في الأندلس بعد أن سقطت دولتهم في دمشق، وقد لقب بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من الأمويين،وقد لقب بصقر قريش حيث أطلق ذلك اللقب أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي لما أبداه من شجاعة نادرة ولما لقيه من أهوال عند هروبه من المشرق إلى المغرب وعند تأسيس دولته الجديدة.

وقد توفي عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٢هـ وتولى الإمارة بعده أبناؤه وأحفاده وهم على النحو الآتي:

١) هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢- ١٨٠هـ)

٢) الحكم بن هشام (١٨٠- ٢٠٦هـ)

٣) عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦- ٢٣٨هـ)

٤) محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨- ٢٧٣هـ)

٥) المنذر بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣- ٢٧٥هـ)

٦) عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٥- ٣٠٠هـ)

- وهؤلاء جميعا كانوا يلقبون بـ (الأمراء)

٧) عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله (٣٠٠- ٣٥٠هـ)

وكان أعظم حكام الأندلس بعد جده عبد الرحمن الداخل حيث حول الإمارة الأموية في الأندلس إلى خلافة ولقب في عام (٣١٦هـ) بأمير المؤمنين الناصر لدين الله وأعلن نفسه خليفة للمسلمين وقد بلغت الأندلس أوج مجدها وغاية رفعتها في عهده وعهد ابنه الحكم.

٨) الحكم بن عبد الرحمن (٣٥٠- ٣٦٦هـ)

وكان عهده امتداد لعهد أبيه الزاهر ، ثم جاء بعده خلفاء ضعاف سيطر عليهم الحجاب والوزراء كالمنصور بن أبي عامر. وكان آخر خلفاء بني أمية في الأندلس هشام الثالث الذي سقطت في عهده الدولة الأموية عام ٤٢٢هـ وجاء بعدها ماعرف بالتاريخ الأندلسي بعصر ملوك الطوائف.

٣) **عصر ملوك الطوائف :**

وقد امتد عصر ملوك الطوائف من سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٢هـ إلى سنة ٤٩٣هـ وإن كانت بعض دول الطوائف قد قامت قبل سقوط الدولة الأموية وقد تعددت دول الطوائف وكثر ملوكها ومن أشهرهم:

١) بنو هود في (سرقسطة) من سنة (٤٠٠- ٤٣٦هـ)

٢) بنو عامر في (بلنسية) من سنة (٤١٢- ٤٢٨ هـ)

٣) بنو الأفطس في (بطليوس) من سنة (٤١٣- ٤٨٧هـ)

٤) بنو جهور في (قرطبة) من سنة (٤٢٢- ٤٨٤ هـ)

٥) بنو عبَّاد في (اشبيلية) من سنة (٤١٤- ٤٨٤هـ)

٦) بنو ذا النون في (طليطلة) من سنة (٤٢٧-٤٨٧هـ)

وقد عُرف عصر ملوك الطوائف من الناحية السياسية بكثرة الاضطرابات والحروب وما تبع ذلك من استعانة بعض الملوك على بعض بالنصارى حتى قال ابن رشيق القيرواني فيهم:

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتضد فيها ومعـــــتمد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

أما من الناحية الأدبية : فقد كان عصر ملوك الطوائف عصر ازدهار أدبي لأن كل ملك منهم كان ينافس الآخرين في تقريب الأدباء ومنحهم العطايا والهبات.

٤) عصر المرابطين :

وعندما ضعفت دول الطوائف ونشط النصارى في محاربة المسلمين في الأندلس ومحاولة إخراجهم منها استعان ملوك الطوائف بدولة المرابطين بالمغرب وأول من استعان بهم : المعتمد بن عباد أمير اشبيلية وقد هب لنجدته أمير المرابطين يوسف بن تاشفين الذي نصره بجيش كبير لنجدة أهل الأندلس وهزيمة النصارى حيث انتصر عليهم في معركة (الزلاقة) سنة (٤٧٩هـ) وبعد ذلك النصر العظيم انسحب يوسف بن تاشفين من الأندلس بعد أن خلف بعض جنده هناك ولكنه اضطر إلى دخول الأندلس ثانية سنة(٤٨٣هـ) وخلع ملوك الطوائف وأخضع الأندلس لحكم المرابطين الذي استمر إلى سنة (٥٤١هـ) عندما استولى عليها الموحدون .

٥) عصر الموحدين:

وهم أتباع محمد بن تومرت الذي سمى نفسه (الموحد) وجمع حوله أنصاره ودعاهم إلى التمسك بآداب الشرع وإقامة أحكام السنة وأطلق على طريقته اسم التوحيد وشايعه الناس وتبعوه في ما

ذهب إليه حتى عرفوا بالموحدين ، وأول من استولى على الأندلس من الموحدين عبد المؤمن ابن علي الذي دخل الأندلس وأحكم سيطرته عليها وظل حاكماً لها حتى توفي عام (٥٥٨هـ) فخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وقد استمر الموحدون في حكم الأندلس إلى أن سقطت دولتهم في اشبيلية سنة(٦٣٦هـ) .

٦) عصر مملكة غرناطة :

لقد أقام بنو الأحمر دولة عربية إسلامية في غرناطة سنة (٦٣٦هـ) وأول ملوكهم محمد بن يوسف ابن نصر ولذا تسمى دولتهم بدولة (بني الأحمر أو الدولة النصرية) وقد استمر حكمهم ما يزيد على قرنين من الزمان حتى سقطت دولتهم سنة (٨٩٨هـ) وكان من أسباب سقوطها :

الصراع بين أمراء بني الأحمر واستعانة بعضهم بالنصارى على بعض مما أدى إلى انهيار دولتهم بل إلى خروج المسلمين من الأندلس نهائياً سنة (٨٩٨هـ) عندما استولى الملك فردناند الملك الرابع والملكة إيزابيلا على غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس على عهد محمد بن الأحمر الذي سلم غرناطة لهم وخرج نادما باكيا بعد أن فرط بأمور المسلمين وعند تسليمه قصر الحمراء ومغادرته مدينة غرناطة بكى بكاءً مُرّاً ولكن والدته أنبته وقالت له :

أبكِ مثل النساء مُلكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

وهكذا سقطت دولة المسلمين في الأندلس بعد حكم دام أكثر من ثمانية قرون وبعد حضارة إسلامية كانت منار العلم في أوروبا التي كانت تعيش في دياجير الجهل والتخلف .

الحياة الثقافية والاجتماعية في الأندلس:

اشتهر الأندلسيون بحب الثقافة والإطلاع وتقدير العلماء وإعلاء مقامهم ولذلك كثر العلماء في الأندلس وكثرت مؤلفاتهم وقدمت الأندلس للثقافة الإسلامية والعربية أعلاماً بارزين في مختلف العلوم والفنون وقد انتشرت المكتبات في الأندلس وأقبل الناس على اقتناء الكتب حتى قيل إن كل

بيت في الأندلس لابد أن يكون فيه مكتبة حتى ولو كان صاحبها عامياً، وقد أنشأ الحكم بن عبد الرحمن الناصر مكتبة كبرى في قرطبة تعتبر من مفاخر الأندلس ومن أشهر المكتبات في العالم الإسلامي ، كما عمل الأمراء الأمويون على جلب الكتب واستنساخها من المشرق حتى قيل إن كتاب (الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني) خرجت النسخة الأولى منه وعرفت بالأندلس قبل أن تعرف في بغداد وذلك أن الحكم بن عبد الرحمن الناصر قد بعث إلى أبي الفرج بألف دينار ذهباً فبعث إليه أبو الفرج النسخة الأولى من كتابه الأغاني قبل أن تخرج للناس في العراق وقد رحلت مجموعة من طلاب العلم في الأندلس إلى المشرق لتلقي العلوم المختلفة ولنقل الثقافة الشرقية إلى المغرب والأندلس ومنهم:

١)يحيى بن يحيى الليثي الذي رحل إلى المدينة المنورة وتتلمذ على الإمام مالك رحمه الله ثم عاد إلى الأندلس.

٢)وكذلك رحل شاعر الأندلس المشهور يحيى بن الحكم الغزال إلى بغداد والتقى بأدبائها وروى عنهم الشعر.

كما أن الأمويين في الأندلس قد عملوا على جلب العلماء من المشرق إلى الأندلس وذلك لنشر العلم فهاجر من المشرق إلى الأندلس نخبة من العلماء في الفقه واللغة والأدب منهم:

١) أبو علي القالي صاحب كتاب الأمالي ٢) صاعد بن الحسن البغدادي

وكان المجتمع الأندلسي خليطاً من أجناس متعددة هم:

١) العرب الذين دخلوا الأندلس فاتحين أو دخلوها بعد الفتح.

٢) البربر الذين شاركوا في الفتح الإسلامي أو نزحوا إليها من الشمال الإفريقي.

٣) سكان الأندلس من الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام.

٤) الصقالبة وغيرهم من الأجناس.

وقد اندمجت فئات المجتمع الأندلسي ووحد الإسلام بينها وأصبحت اللغة العربية لغة الجميع وساهموا جميعاً في الحضارة الإسلامية في الأندلس كما أن لأهل الأندلس عناية كبيرة باللغة العربية فقد تعربّت الأندلس بعد الفتح بفترة قصيرة ثم جاء الأمويون فعملوا على نشر اللغة العربية وخدمتها وكان أكثرهم من الشعراء والخطباء فازدهر الأدب في الأندلس وجاء التراث الأدبي زاخراً ومتنوعاً.

ولم يخلُ المجتمع الأندلسي من عوامل الضعف ومكونات الفساد فقد كان كثيراً من أفراد المجتمع يميل إلى حياة الترف والدعة واللهو واللعب والغناء بسبب ضعف الإيمان ثم إن وجود عددٍ من الأسبان الذين لم يسلموا وعددٍ آخر من اليهود في وسط المجتمع الأندلسي كان من عوامل الضعف والانهيار إضافة إلى إستعانة بعض الحكام وخصوصاً في عهد ملوك الطوائف ومن بعدهم بالنصارى من ملوك الأسبان الحاقدين على الإسلام والاعتماد عليهم أدى ذلك إلى انهيار الدولة الإسلامية في الأندلس وخروج المسلمين منها في آخر الأمر.

وقد كان لتلك الحضارة العظيمة التي أنشأها المسلمون في الأندلس تطورات مختلفة فقد وصلت هذه الحضارة إلى ذروة القوة في عهد الخلافة الأموية أيام حُكم عبد الرحمن الناصر وولده الحكم ولكنها لم تصل إلى ذروة نضجها الفكري ولما انهارت الخلافة الأموية وسادت الفوضى في الأندلس في عهد الفتنة ذوت الحضارة وخبت مظاهرها العمرانية والفكرية حتى جاءت دول الطوائف فاستطاعت رغم تطاحنها أن تعيد بهاء الحياة الأندلسية في قصورها ومنشآتها ومجتمعاتها،وسطعت شمس الأدب والفكر وعرفت الأندلس في هذه الحقبة المضطربة طائفة من أعظم مفكريها وشعرائها منهم :

١) ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)　　٢) المؤرخ ابن حيان (ت ٤٦٩هـ)

٣) الشاعر ابن زيدون(ت ٤٦٢هـ)　　٤) الشاعر الأديب ابن عبدون(ت ٥٢٠هـ)

وغيرهم من المفكرين والأدباء في عصر ملوك الطوائف الذين ذكرهم المَقَّـري في(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) بل إن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا في طليعة الأدباء والشعراء ومنهم :

١) عمر بن الأفطس حاكم بطليوس .

٢) المعتضد صاحب إشبيلية.

٣) المعتمد بن عبَّاد حاكم إشبيلية وقرطبة.

٤) المعتصم بن الصمادح صاحب المرية.

ولكن هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة مالبثت أن توقفت عقب تضعضع ملوك الطوائف واستيلاء المرابطين على الأندلس سنة (٤٩٣هـ) فقد كان هؤلاء المرابطون لايأبهون الشعر أو الأدب بل كانوا عساكر ألفوا الحرب والخشونة فلم تجد دولة الفكر والأدب في ظلهم مرتعاً خصباً نعم لقد تألقت في عصرهم القصير بعض الأسماء اللامعة أمثال:

١) الطبيب أبي القاسم خلف بن عباس القرطبي (ت ٥١٦هـ).

٢) الفيلسوف ابن باجَّة (ت٥٢٣هـ)

٣) الفتح ابن خاقان (ت ٥٣٥هـ)

٤) ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة.

٥) ابن قزمان (ت ٥٥٥هـ) صاحب الأزجال الشهيرة.

ولكن ظهور هؤلاء في هذه الفترة لم يكن إلا امتداداً للنهضة الأدبية في عهد ملوك الطوائف، ثم جاءت دولة الموحدين فانتعشت الحضارة الأندلسية ونشطت حركة الأدب وعرف بعض الأعلام البارزين في هذا العصر من أمثال:

١)أبو جعفر ابن الطفيل الإشبيلي صاحب رسالة (حي بني يقظان) (ت ٥٧١هـ)

٢)ابن رشد القرطبي (ت ٥٩٤هـ)

٣)موسى بن ميمون القرطبي (ت ٦٠٢هـ) وهو من أشهر الأطباء في عصره .

وظهر في تلك الفترة إلى جانب هؤلاء العلماء عدداً من أعلام الشعر والأدب من أمثال:

١) أبو القاسم خلف بن بشكوان القرطبي (ت ٥٧٨هـ) وهو مؤلف كتاب الصلة.

٢) ابن بدران الإشبيلي المتوفى في فاتحة القرن السابع وهو شارح قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء بني الأفطس.

وفي أيام الموحدين أيضاً ازدهرت المعاهد العلمية في المغرب و الأندلس وكانت المعاهد في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف ومقصد الطلاب من كل فج حيث فيها المكتبات التي تضم الكتب النفيسة والتآليف النادرة في مختلف العلوم والفنون.

كما عني الموحدون برعاية الفنون وأقيمت في عهدهم طائفة من القصور والمساجد التي امتازت بجمالها الفني والعمراني ، ولما اضمحل شأن الموحدين وضعف أمرهم في المغرب والأندلس في أوائل القرن السابع الهجري واجتاحت الفتنة معظم الثغور والمدن الأندلسية وقام المتغلّبون يتنافسون في أسلاب الدول السابقة وبدأت قلاع الأندلس تسقط تباعاً في يد النصارى وشغلت الأندلس بمحنتها وانصرفت إلى متابعة الجهاد والدفاع عن الأندلس فانكمشت فنون السِّلم واضطربت دولة التفكير والأدب ومع ذلك فقد ظلت تمتاز بكثير من نواحي القوة والنضج وقد أثرت المحنة في نفوس الشعراء فأذكت عواطفهم بشعر اللوعة فأرسلت إلينا بعض المراثي التي لازالت في زماننا تحتفظ بالكثير من روعتها وجمالها.

وانجلت الفتن الداخلية وانجلى الصراع بين أهالي الأندلس والأسبان النصارى بعد ثلث قرن عند سقوط معظم القواعد الأندلسية بيد النصارى وانكمشت رقعة الأندلس تباعاً وانحصرت في الركن الجنوبي الغربي من المملكة الأندلسية الإسلامية وتحديداً في مملكة غرناطة التي برزت في خضم الفوضى وتأسست على يد محمد بن الأحمر زعيم بني النصر .

وفي ظل مملكة غرناطة أخذت الحركة الفكرية في الاستقرار وبدأت الأندلس حياتها الجديدة وآنست

جواً من الطمأنينة والسرور وكان ملوك غرناطة من محبي الأدب و الفنون وسطع بلاط دولة بني الأحمر بتقاليده الزاهية على غرار قصور ملوك الطوائف.

عوامل النهضة الأدبية في الأندلس:

1)الشعر: تهيأت للشعر بعض الدوافع التي جعلته يحظى بمكانة عالية وحققت له رسائل الازدهار فقد شغف الأدباء بنظم الشعر وانبسطت ألسنتهم بقوله حتى قلّ أن نجد منهم من ألمَّ بطرق الآداب ولم ينظم شعراً فكثر الشعراء واتجهوا إلى التعبير عما يجول في خواطرهم في تلك البلاد التي هاجروا إليها ومن أهم الدوافع التي أسهمت في نهضة الشعر في ذلك العصر مايلي:

١)اهتمام الأمراء والخلفاء الأندلسيين بالشعر وتقريبهم الشعراء والاستماع إليهم فكان للشعر مكانة عند أولئك الحكام وكان الشاعر قد ينال الوزارة فيصبح مقرباً إليهم فهو شاعر الأمير ونديمه ومُصَرِّف مملكته في آن واحد لأجل ذلك اعتز الشعراء بتلك الطريقة وسمت مكانتهم وحفلت بهم دور الأمراء ومن أولئك الشعراء مثلاً:

١) الشاعر ابن زيدون الذي كان وزيراً عند بني جهور في قرطبة.

٢) الشاعر ابن الخطيب الذي كان وزيرًا عند بني الأحمر في غرناطة.

٣) الشاعر ابن عمّار الذي كان وزيراً عند: المعتمد بن عبادفي (إشبيلية).

وهناك من الشعراء من حاول الوصول والانضمام إلى بلاط الأمراء ولكنهم لم يستطيعوا الوصول إلى تلك الغاية فصاروا يمدحونهم وينالون عطاياهم وهو الأمر الذي شجع الشعراء على الإجادة في النظم والتفنن في الأساليب البلاغية من أجل أن ينالوا مكانة عند الحكام كما كان بعض الشعراء يقوم بدور آخر وهو دور المكاتبات والمراسلات فكانوا يتنافسون في إتقانها وإجادتها حتى تظهر في صورة أدبية رائعة ولذلك كان الحكام يحرصون على الشعراء النابهين المتملكين زمام اللغة الذين يجيدون الكتابة الأدبية ، وكان ذلك الشاعر الكاتب يحظى بدرجة عالية بقيامه برئاسة ديوان

الإنشاء ووقوفه على الرسائل الأدبية والسياسية التي تصدر عن ذلك الديوان والتي تحتاج إلى كثير من الإتقان والإجادة وتتطلب من الكاتب الثقافة الأدبية والقدرة على إخراج الرسائل بشكل متقن.

٢)أثر الطبيعة الأندلسية الخلابة في نفوس الشعراء:

فقد تفاعلوا معها ووصفوا مفاتنها وعبروا عن مشاعرهم نحوها حتى قال ابن بسام في كتابه الذخيرة:(لم تخلُ مدينة من مدن الأندلس من شاعر حاذق ومن كاتب أديب إلا قد استهوته تلك الطبيعة الخلابة). ولم تقتصر الرغبة في الشعر ونظمه على الرجال بل تعدت إلى النساء فنبغ منهن شاعرات يكدن يظاهين الشعراء وكان منهنَّ طبقة من المحسنات البارعات من أمثال:

ولادة بنت المستكفي ، وتلميذتها مهجة القرطبية وأيضاً نزهون الغرناطية وكنَّ جميعاً قد نظمن أشعاراً على درجة عالية من الإجادة.

الحياة الأدبية في الأندلس:

شهدت الأندلس نشاطاً أدبياً في جميع عهودها التاريخية فقد شغف الأدباء والمثقفون بنظم الشعر والتفنن فيه حتى أصبح لكل بلدة أدباؤها وشعراؤها وقد روى ياقوت الحموي في مؤلفه(معجم البلدان)عن (شِلْب) إحدى مدن الأندلس يقول:(وسمعت مما لاأحصي أنه قال قلَّ أن ترى من أهلها من لايقول شعراً ولايعاني الأدب ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما أقترحت عليه وأي معنى شئت من المعاني).

ولذا يقول المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسان(إن الأندلس في عصر ملوك الطوائف عرفت أكبر إشراق شعري).

كذلك تقدم النثر في ذلك العصر حتى إنك لاتكاد تفرق بين النثر والشعر إلا في الوزن والقافية وكان حظ النثر من حيث هو أحد فني الأدب الرئيسيين وافراً واضحاً تمثل في النصوص والآثار العديدة التي تزخر بها المصادر الأندلسية والمشرقية كما أثبتت أصالة ماكتبه كتاب الأندلس وما

دونوه في المؤلفات من تراث رفيع.ففي عصر الدولة الأموية رست تقاليد الشعر ورسخت لبناته على أيدي مجموعة من كبار الأدباء والشعراء كابن عبد ربه(ت ٣٢٨هـ) وابن هاني الأندلسي (ت ٣٦٢هـ) والشريف الطليق (تـ ٣٩٦هـ) والشاعر الرمادي(تـ ٤٠٣هـ) وعبادة بن ماء السماء(تـ ٤١٩هـ) وغيرهم.

وكان شعراء الأندلس قد بدأوا مقلدين ثم معارضين متحدين حتى استقلوا وتفوقوا على شعراء المشرق وقد تم لهم ذلك في عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري .

وإنما لقب بعض شعراء الأندلس بألقاب شعراء المشرق لمكانة الأولين في الأدب ومنزلتهم في أسماع الناس.فلقب ابن هاني الأندلسي بمتنبي الأندلس ، ولقب ابن خفاجة بالصنوبري ، ولقب ابن زيدون ببحتري الأندلس ،ولقبت ولادة بنت المستكفي بالله بخنساء الأندلس، وكان جيل ابن خفاجة قد خطا خطوة جديدة وكون شيئاً فشيئاً مدرسة شعرية تمتاز بخصائص أندلسية.

وفي عصر ملوك الطوائف ورغم اضطراب الحياة السياسية في هذا العصر إلا أننا نلحظ تفوقاً بالحياة الأدبية والثقافية ونشاطاً شعرياً تسابق إليه كثير من الشعراء ونظموا أروع قصائدهم فكانت مرحلة من أكثر المراحل الأدبية ازدهاراً وتطوراً في النهضة الشعرية في الأندلس،

ومن أبرز الشعراء في ذلك العصر :

١ـ ابن دراج القصطلي (ت ٤٣١هـ) ، ٢ـ ابن شُهيد الأندلسي(ت٤٢٧هـ)،

٣ـ أبو إسحاق الإلبيري(ت٤٥٩هـ) ، ٤ـ ابن شرف القيرواني(ت٤٦٠هـ) ،

٥ـ ابن زيدون(ت ٤٦٣هـ ، ٦ـ ابن عمار(ت ٤٧٧هـ) ، ٧ـ ابن الحداد(ت ٤٨٠هـ) ،

٨ـ ابن وهبون(ت ٤٨٤هـ) ، ٩ـ أبو الحسن الحصري(ت ٤٨٨هـ) ، ١٠ـ السميسر(ت ٤٨٨هـ)،

١١ـ ابن عبدون(ت ٥٢٠هـ) ، ١٢ـ ابن حمديس الصقلي(ت ٥٢٧هـ) ، ١٣ـ ابن خفاجة الأندلسي(ت ٥٣٣هـ)، ١٤ـ الأعمى التطيلي(ت٥٤٢هـ)، ١٥ـ الرصافي البلنسي(ت٥٧٢هـ).

ومن الشاعرات اللاتي تألقن في سماء الأدب أسماء كثيرة برزت في ذلك العصر منهن:

١) عائشه بنت أحمد القرطبية. ٢) صفيه بنت عبد الله. ٣) حفصه بنت حمدون الحجازية.

٤) حمدونة بنت زياد. ٥) بثينة بنت المعتمد بن عباد. ٦) ولادة بنت المستكفي بالله.

٧) مهجة القرطبيـــة.

وهذا العدد الضخم من الشعراء والشاعرات يدل على النهضة الأدبية التي شهدها عصر ملوك الطوائف في الأندلس وإلى سيادة الثقافة والمعرفة لدى طبقات المجتمع، وكانت المجالس الأدبية سمة في عصر ملوك الطوائف فكثرت كثرة لم يسبق لها مثيل فكان المعتضد بن عباد حاكم إشبيلية يعقد مجلسه يوم الإثنين من كل أسبوع وكان المعتصم بن الصمادح صاحب المرية يعقد مجلسه يوم الجمعة من كل أسبوع وكذلك كان الأمر بالنسبة لبقية ملوك الطوائف الذين مارسوا هذا النشاط الأدبي وسعوا إلى استقطاب الشعراء والأدباء إلى بلاطهم.

ومما يحسن التنويه به ونحن نستعرض حالة الأدب في الأندلس أن نشاط الأدب بدأ يخفق شيئاً فشيئاً في عصر المرابطين فأصابه الخمول والفتور لجملة أسباب منها:

طبيعة الحكام الجدد الذين عرف عنهم الانصراف عن الشعر والاهتمام بتعلمهم العلوم الشرعية.

و انشغالهم بالحروب والجهاد في سبيل الله ونشر الدين لذا لم يكن لهم اهتمام أو تشجيع للأدب أو إحياء مجالسه كما كان في عهد ملوك الطوائف.

ويرى بعض الدارسين أن عصر المرابطين كان عصر تدوين الأدب شعره ونثره أكثر منه عصر شعر ونثر فني ففيه ألف ابن بسام ذخيرته وألف ابن خاقان قلائده وكان كل منهما قد أحسّ بما يهدد بلاده من الضياع فنهض ليصون ذخائرها ويخلد كنوزها.

أغراض الشعر الأندلسي:

نظم شعراء الأندلس في مختلف الأغراض الشعرية ولم يشذوا بشكل عام عن القواعد والأساليب التي اتبعها المشارقة في أشعارهم.

فالأغراض الشعرية المعروفة من مدح وفخر وهجاء ووصف ورثاء وغزل وحكمة وزهد هي من أهم الأغراض التقليدية التي سار عليها شعراء الأندلس وكانوا كغيرهم من الشعراء في العصور السابقة وإن كانوا قد أدخلوا بعض السمات التي اتسم بها العصر الأندلسي واتضحت معالمها في أشعارهم.

ويبقى وصف الطبيعة الأندلسية بجمالها وظلالها الوارفة وأشجارها وأنهارها وجداولها وشلالاتها تلفت انتباه الشعراء وتدعوهم إلى أن يصفوا تلك الطبيعة وما أبدته من صور خلابة في نفوسهم.

ومن جانب آخر فإن الأحداث السياسية في الأندلس والأوضاع المضطربة التي ظلت لفترات زمنية متوالية كانت جانباً من الجوانب التي طرقها الشعراء وبخاصة حينما ضعفت الإدارة السياسية وتمكن النصارى الأسبان من إسقاط المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى في شكل نكبات متوالية كانت تمر ثقيلة وأليمة على الشعراء والأدباء الأمر الذي دعاهم إلى التعبير عن ذلك الحال والحديث عن تلك المدن الذاهبة والقلاع التي سقطت بأيدي النصارى حيث رثوا تلك البلاد وبكوها بكاءً حاراً في أشعارهم.

وإضافة إلى تلك الموضوعات التي برزت في الشعر الأندلسي وكانت علامة دالة على شخصية ذلك الأدب وتميزه وتفاعل الشعراء مع عصرهم والأحداث التي عاشوها وعبروا عنها فقد ظهر التجديد في جانب آخر وهذه المرة ليس في جانب الموضوعات وإنما في شكل القصيدة الأندلسية ، فقد اخترع الأندلسيون فن الموشحات وهو الشعر الذي يصاغ في قالب موسيقي يختلف عن موسيقى الشعر وأوزانه وبحوره التي اخترعها الخليل بن أحمد وابتكر مسمياتها .

فقد جاء فن التوشيح في أوزان شعرية مخصوصة تميل إلى توافر الإيقاع بكثرة وهو مايساعد على الإنشاد وهذه الأوزان اخترعها شعراء الأندلس وقد كان للطبيعة التي عاشوها والحياة الجديدة التي انتقلوا إليها أثر في ذلك فقد أمدتهم بهذا اللون من ألوان الشعر.

أما الأغراض الشعرية التي نظم فيها شعراء الأندلس فهي كالآتي:

١)**شعر المديح** : نال المديح حظه في ذلك العصر حيث بدأ شعراء المديح في الظهور عند تأسيس عبد الرحمن الداخل للدولة الأموية في قرطبة ثم تكاثر الشعراء في عهد عبد الرحمن الأوسط وفي عهد ابنه محمد وكانوا ينظمون قصائد المديح مبينين أثر أولئك الخلفاء في نهضة الخلافة الإسلامية في الأندلس وفي مقدمة أولئك الشعراء :

ابن عبد ربه(صاحب العقد الفريد) فقد اتصل بالخليفة عبد الرحمن الناصر ومدحه بقصائد كثيرة منها قوله:

قد أوضح اللـــه للإسلام منهاجــاً ... والناس قد دخلـــوا في الديـــن أفوجاً

وقد تزينـــت الدنيا لساكنـــهـــا ... كأنمـــا لبـســت وشيـــاً وديــــباجـــا

مات النفاق وأعطى الكفر ذمتـــه ... وذلـــت الخيـل إلجامـــاً وإســراجـــا

أدخـلت في قبة الإســلام مـارقـة ... أخرجتهـم من ديار الشرك إخــراجـــا

في نصف شهر تركت الأرض ساكنة ... من بعد ماكان فيها الجور قـد مـــاجـــا

إن الخـــلافة لـن ترضى ولا رضيت ... حتـى عقدت لها فـي رأسك الـــتاجـــا

ويمدح عبيد الله بن إدريس الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الداخل ويهنئه بفتح مدينة (لكّـا) فيقـول:

قد جاءك الفتح في العيد الكبير فما ... رأيـــت مثلهما في اليوم عيـــديـــن

يافرحة من رأى في الغزو طالعهـــا ... وشاهد الفتح لم يأسف على البيـــن

ألـذ في السمع من بشرى الحميم إذا وافى ومن منظر المعشوق في العين

وفي عصر دول الطوائف كانت عواصم هؤلاء الأمراء تتحول إلى ساحات كبرى للمديح فليس هناك أمير ولا وزير إلا وتنظم فيه المدائح حيث تكاثر الشعراء سواءً من داخل الأندلس أو من خارجها ممن وفدوا لذلك الغرض فقد استحالت قصور الخلفاء إلى ندوات وحفلات لإنشاد الشعر وهو ما أحدث نهضة شعرية في الأندلس ومن الأمراء الذين اجتمع ببابهم كثير من الشعراء : المعتضد وابنه المعتمد بن عباد حيث مدحهم الشعراء وأطالوا في مدائحهم ومن أولئك الشعراء: ابن عمار الذي كان وزيراً في دولة المعتمد حيث مدح المعتضد بأبيات قال فيها:

ملك إذا ازدحم الملوك بمـــورد ونحاه لايردون حتـــى يصدرا

أندى على الأكباد من قطر الندى وألذ في الأجفان من سِنَة الكـــرى

قداح زنـد المجد لاينـــفك مـــن نـــار الوغى إلا إلى نـــار القـــرى

قـــاد المـــواكب كالكواكب فوقهم من لأمـــهم مثـــل الســـحاب كنهـــورا

من كل أبيض قد تقلد أبـــيـــضاً عضبـــاً وأسمـــر قد تقـــلد أسمـــــرا

عبـــادنا المخضر نائـــل كفـــه والجود قد لبـــس الرداء الأغبـــــرا

ملـــك يروقك خلقه أو خلقـــــه كالـــروض يحسن منظراً أو مخبـــراً

ومــــن شعراء المديــح أيضاً ابن دراج القصطلي الذي اتصل بالمنصور ابن أبي عامر آخر ملوك الدولة الأموية في الأندلس ونال عنده حظوة ومدحه بقصائد كثيرة من ذلك هذه الأبيات:

ولما ترامـــــوا للسلام ورُفّعت عن الشمس في أفق الشروق ستور

وقد قام من زرق الأسنة دونـــــه صفوف ومن بيض السيوف سطور

رأو طاعة اللـــه كيف اعتزازها وآيات صنع اللـــه كيف تنيـــــــر

وكيف استوى بالبدر والبحر مجلس وقام بعبء الراسيات سريـــــــر

يقولون والأوجال تخرس ألسناً وحارت عيون منهم وصـــــدور

لقد حاط أعلام الهدى بك حائـط وقدر فيك المكـــرمات قديـــــر

والملاحظ في قصائد المديح أنها لم تخرج عن الطريقة التقليدية التي سار عليها الشعراء المتقدمون من بدء القصيدة في الغالب بوصف الرحلة وماعاناه الشاعر وهو في طريقه إلى الممدوح، وقد بدأت كثير من المقدمات عند الشعراء الأندلسيين بوصف الطبيعة أو الشكوى أو العتاب ثم يذكر الشاعر بعد ذلك صفات الممدوح من شجاعة وكرم وحلم وإقدام وغير ذلك من الصفات التي يدور عليها المديح في الشعر العربي.

وإن امتاز مديح الأندلسيين بشيء من الرقة التي هي الطابع العام للشعر وكذلك بوصف مظاهر الحضارة من قصور وقلاع وحصون ومنازل ووصف للطبيعة الأندلسية الساحرة.

ومن أشهر شعراء المديح في الأندلس:

ابن زيدون، ابن عمار، ابن حمديس الصقلي، ابن دراج القصطلي، ابن هانيء الأندلسي، وإن كان الأخير لديه الغلو في بعض المدائح وخاصة تلك التي نظمها في الخلفاء الفاطميين في مصر وأظهر الغلو والتجاوز في كثير من أشعاره التي قالها في الشيعة الفاطمية وهذا بخلاف قصائده في ملوك الأندلس.

٣)وصف الطبيعة في الأندلس:

كانت بلاد لأندلس روضة فسيحة من الرياض الجميلة وبلغت الحضارة في ربوعها مبلغاً رفيعاً فاتسعت فيها آفاق العلوم والفنون والآداب وساعدت الطبيعة الفاتنة هناك على نضوج الشعر وحلاوته فالأندلس بلاد جميلة: خضرة وماء وبساتين وأنهار وجبال وسهول وفاكهة ورياحين ثم أضفت الحضارة الجديدة الوافدة عليها من الرقي ما جعل سكانها يحافظون على روح الجمال الطبيعي في بلدهم فأصبحت الأندلس أنشودة في فم الشاعر ينشدها وهو بين ظهرانيها ويرددها وهو مغترب عنها وإذا كان الشعر في الأندلس ظاهرة أساسية من ظواهر البيئة فيه فإنه قد تدخل في كل

شؤون الحياة وتخللها ووصفها ووقف عند حدود جمالها بل اتجه الشعراء إلى وصف الأندلس وما بها من جمال الطبيعة ومنهم ابن خفاجة الأندلسي الذي يقول:

إن للـــجنـــة بالأنـــدلـــس ... مجتلى حســـن وريـــا نفـس

فسنـــا صُبحتها من شـــنـــب ... ودجـــى ليلـتـها من لعـــس

وإذا ماهبـــت الريـــح صبـاً ... صـحت واشـوقـي إلى الأنـدلـس

وهذا شاعر آخر يصف الأندلس فيقول:

حبذا أنـدلـــسٌ من بـــلـــد ... لم تزل تنتـــج لي كل ســـرور

طائـــر شـــادي وظـــل وارف ... وميـــاهٌ سائحات وقصـــور

أما مدينة قرطبة فقد نظم فيها الشعراء كثيراً من قصائدهم لما تحتويه تلك المدينة من حسن وجمال وطبيعة خلابة جعل كثيراً من الشعراء يتيهون في وصفها ومنهم أبو بكر المخزومي الذي كان يلقب ببشار الأندلس حيث قال فيها:

أقرطبـــة الغراء هل لـــي أوبـــة ... إليـــك وهـــل يدنـــو لنا ذلك العهد

سقى الجانب الغربـــي منك غمامـــة ... وقعقع في ساحات دوحاتك الرعـــد

لياليـــك أسمار وأرضك روضـــة ... وتربك في استنشاقها عنـــبر ورد

وهذا أديب من مدينة (شِلب) وهو أبو عمرو ابن مالك يحن إلى مدينته (شلب) ويصفها وصف لوعة وصبابة ، وشلب مدينة تقع في أقصى الغرب من الأندلس يقول أبو عمرو:

أشجـــاك النسيم حيـــن يهـــب ... أم سنا البرق حين تهفوا وتخـــبوا

أم هتوف على الأراكـــة تشـــدوا ... أم هتـــوف من الغمامة تصبوا

كل ذلـــك للصبـــابـــة داع ... أي صـــب دموعه لاتصبُّ

أنا لولا النـــسيم والبـــرق ... وصـــوب الغمام ماكنت أصبوا

ذكرتني شلب وهيهات منـــــي بعدما استحكم التباعد شـــلب

ويتحدث شاعر آخر عن مدينة طليطلة ويتحمس لجمال الطبيعة في تلك المدينة فيقول:

زادت طليـــطلة على ماحدثوا بلد عليـــه نظـــــرة ونعيـم

اللـــــه زينه فوشح خضـــرة نهر المجرة والغصون نجـوم

ومن شعراء الأندلس من توقف عند طبيعة الأندلس الخلابة وبساتينها الخضراء وهوائها العليل فصور ما دار في وجدانه تجاه الأندلس فقال:

في أرض أندلس تلتذ نعـماء ولا يفارق فيها القلب ســـــراء

أنهارها فضة والمسك تربتها والخز روضتها والدر حصباء

وللهواء بها لطف يرق بـــه من لايرق وتبدوا منه أهـــواء

ليس النسيم الذي يهفوا بها سحراً ولا انتشار لآلئ الطل أنـــداء

وإنما أرج الندّ استثار بهـــا في ماء ورد فطابت منه أرجاء

وأين يبلغ مـنـــها ما أصوّره وكيف يحوي الذي حازته إحصاء

قد ميزت من جهات الأرض حين بدت فريدةً وتولى ميزها المـــــاء

دارت عليها نطاقاً أبحر خفـقـت وجداً بها إذ تبدت وهي حسنـاء

لذاك يبسم فيها الطيرُ من طـــرب والطير يشجو وللأغصان إصغاء

فيها خلعت عذارى مابها عـــوض فهي الرياض وكل الأرض صحراء

ويصف ابن خفاجة الأندلسي الجبل فيتحدث عن ضخامته وطوله وكيف أنه يسد مهب الريح وكيف أن الغيم يأتيه وإليه يذهب الناس فكم من فاتك لجأ إليه، وكم من عابد تائب أدى صلاته إلى جواره وكم من مسافر قال في ظله، فيقول ابن خفاجة الأندلسي:

وأرعن طماح الذؤابة بـــاذخ يطاول أعنان السمـــاء بغـــارب
يسـد مهـب الريح من كل وجهة ويزحم ليلاً شهبه بالمنـــاكـــب
وقور على ظهر الفلاة كأنـــه طوال الليالي مغرق فــي العواقـب
يلوث عليه الغيـم سود عمائـم لها من وميض البرق حمر ذوائـب
أصخت إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليل الســـرى بالعجائـب
وقال ألا كم كنت ملجأ فاتـــك وموطـن أواه تبتل تـائـــــب
وكم مرّ بي من مدلج ومــاوِّب وقال بظلي من مطي وراكـــب
ولاطم من نكب الريــاح معاطفي وزاحم من خضر البحار جوانــب
فما كان إلا أن طوتهم يد الـردى وطارت بهم ريـح الندى والنوائب
فما خفق أيكي غير رجفة أضلع ونوحُ ورقي غير صرخت نادب
وما غيّض السلوان دمعي وإنمـا نزفت دموعي في فراق الأصاحب
فحتى متى أبقى ويضعن صاحب أودع منـه راحلاً غير آئـــب
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً فمن طالع أخرى الليالي وغـارب
فرحماك يامولاي دعوة ضـــارع يمد إلى نعماك راحة راغـــب
فَأسْمَعَنِي من وعظهِ كل عَبْـــرَةً يترجمها عنــه لسان التجـارب
فسلى بما أبكى وسر بما شجـى وكان على ليل السرى خير صاحب

بواعث شعر الطبيعة في الأندلس:

منح الله الأندلس طبيعة فاتنة فكانت أغنى بلاد المسلمين منظراً وأوفرها جمالاً ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد في بطاحها السهول الواسعة وتجري فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنان أشجارها العنادل والأطيار وتنساب الماشية والأنعام في مراعيها الجميلة ويعمل الفلاحون في

حقولها الخضراء وقد تحدث عن جمالها كل من سكنها وأفاض (المقري) في كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) في وصف طبيعتها الفتانة وجنانها البهيجة وانتهى إلى أن قال: ((إن محاسن الأندلس لاتستوفى بعبارة ومجاري فضلها لايُشَقُّ غباره)).

ومن بواعث ذلك الشعر:

١) أنه يمثل تعلق الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وأقاليمهم وتفضيلها على غيرها من البيئات والأقاليم بعد أن كان هواهم متعلقاً بصور الجزيرة العربية.

٢)فقد وصف ذلك الشعر الأقاليم الطبيعية المختلفة في بلاد الأندلس ووصف تعلق الشعراء بها فقد كان لبعض الأقاليم شعراؤها الذين اهتموا بوصف ديارهم فابن زيدون يتغنى بقرطبة وزهرائها وابن سفر المريني يصف إشبيلية وأبو الحسن ابن النزار يتعلق بوادي (أشات) فيصوره تصويراً ينم عن براعة بما يتركه بالنفس من جمال الندى والظل والشجر فيقول:

وادي الأشات يهيج وجدي كلما   اذكرت ما أفضت بك النعماء

لله ظلك والهجير مسلط   قد بردت لفحاته الأنداء

والشمس ترغب أن تفوز بلحظة   منه فتطرف طرفها الأفياء

٣)كما أن شعر الطبيعة يصف طبيعة الأندلس الطبيعية والصناعية فشعراء الطبيعة يصفونها كما أبدعها الله تعالى كالحقول والرياض والأنهار والجبال والسماء والنجوم ويصفونها كما صورها الفن مجلوة في القصور والمساجد والبرك والأحواض فيكمل تذوقهم لجمال الطبيعة وتتضح ألوانها وأشكالها أمام أعينهم فيزدادون لها حباً وبها تعلقاً وكان الشعراء يعبرون عن مشاعر الطبيعة كما رأوها وعاشوا في رحابها.

خصائص شعر الطبيعة في الأندلس:

اتسم شعر الطبيعة في الأندلس ببعض الخصائص الفنية التي ميزته عن غيره من الأغراض

الشعرية بل جعلته تياراً أدبياً شعرياً سار في ركابه كثير من الشعراء في هذا العصر الذين استهوتهم طبيعة الأندلس بجمالها وبهائها فراحوا ينظمون أشعارهم ويتفننون في صياغة قصائدهم بل يتنافسون في إبداع تلك القصائد لتظهر في درجة عالية من الأداء الفني الذي حرص عليه كثير من الشعراء ويمكن أن نحدد أهم تلك الخصائص التي ظهرت في شعر الطبيعة في ذلك العصر في النقاط التالية:

١)التصوير الحسي: دأب شعراء الأندلس على إيراد المعاني الشعرية بصور متعددة حيث عمدوا إلى الأوصاف الكثيرة في وصفهم الأزهار والروض والينابيع والأنهار والأمطار ونحو ذلك .

فابن خفاجه مثلاً يصف النهر في كثير من قصائده التي اعتنت بوصف الطبيعة فيقول عنه:

وإذا استقام رأيت صفحة منصل　　　وإذا استدار رأيت عطف ســـوار

فهو كما يبدو لنا لايحرص على تصوير (وصف) النهر وجريانه وصفاء مائه بقدر حرصه على عرض براعته من خلال هيئة النهر فقد صوره لنا في هيئتين الأولى في حال استقامته والثانية في حال استدارته ، وهو بذلك يرسم في أذهاننا صورة متباينة لذلك النهر فمرة يشبهه بالسيف ومرة يشبهه بالسوار على المعصم، وفي قصيدة أخرى يصف النهر فيقول:

قد رقّ حتى ظـُـنَّ قرصاً مفرغـــاً　　　من فضة في بـــردة خضـــراء

فهو يشبه ماء النهر المجتمع في وسط المروج بأنه أشبه بقرص من الفضة موضوع فوق رداء أخضرعلى أننا نلحظه يكرر الصورة الأولى التي رسمها في أذهاننا فيقـــــــول:

مُتعَطّـــــف مثل السوار كأنـــــــه　　　والزهر يكنفه مَجَـــرّ سماء

فهو يشبه النهر في حالة استدارته وتعطفه بالسوار المستدير بل يصور ماحوله من الأزهار والروض ليجلب إلى أذهاننا صورة متكاملة أطرافها النهر والزهر والأشجار الجميلة.

وعلى هذا الغرار يصف ابن سهل الإشبيلي حُسن الطبيعة وجمالها فيقول:

الأرض قد لبست رداءً أخضراً　　　والطل ينثر في رُباهـــا جوهرا

فالشاعر يصف الأرض بعد هطول الأمطار وقد أصبحت قطعة خضراء يهيم فيها النظر ويتعلق بها الوجدان كما أن المطر يتناثر على الأرض الخضراء كتناثر حبات الجوهر ، والشاعر بهذا الوصف يعمد إلى التصوير الحسي الذي يشخص الجمادات ويجعلها حية متحركة تتحدث وتفرح وتحزن وتتألم وتعبر عن نفسها في كل الأحوال .

وهذا النوع من التصوير الحسي هو مظهر من مظاهر الصورة الجمالية كما أنها خاصية تميز بها وصف الطبيعة في العصر الأندلسي.

٢) النظرة التجزئية(وحدة البيت):

كانت وحدة البيت عند الشاعر العربي مطلباً يسعى إليه ويحرص عليه وكثيراً ما رفع متذوقوا الشعر في نزعتهم التأثرية من شأن الشاعر وحكموا له بالتقدم من خلال بيت واحد انتزع إعجابهم. وهكذا غدت القصيدة في عرفهم كأنها وحدات مجمعة من هذه الأبيات فكأن كل بيت حجرة منحوتة أحسن الصانع صناعتها وأحكم وصفها مع ما قبلها وما بعدها.

وكان يستحسن في البيت أن يكون قائماً بنفسه مكتفياً بمعناه وقد غلبت هذه الظاهرة في الأداء على جانب كبير من شعر العرب وتجلت في كثير من مقطوعات وصف الطبيعة في الأندلس.

وهذا الحرص من الشاعر على صب معناه أوصورته في البيت دفعه إلى أن يعاود ذلك في بيت آخر على هذا الغرار حتى تكتمل قصيدته وطبيعي في مثل هذا الحال أن تفتقر الأبيات فيما بينها إلى الانسجام في بعض الأحيان لقلة اهتمام الشاعر بالنظرة العامة والرؤية الشاملة .

ومن هذا القبيل مثلاً وصف ابن سهل الإشبيلي للربيع حيث يقول:

الأرض قد لبست رداءً أخضراً والطل ينثر في رباها جوهـــرا

هاجت فخلت الزهر كافوراً بها وحسبت فيها الترب مسكاً أذفرا

وكأن سوسنها يصافح وردها ثغر يقبل منه خداً أحمـــــــرا

والنهر مابين الريـــاض تخاله   سيفاً تعلق في نجـاد أخضـــــرا

والطير قد قامت به خطبـــاؤه   لم تتخذ إلا الأراكـــة منبـــــرا

فهذه الأبيات مليئة بالحركة وهي تنم عما يتصف به فصل الربيع من مظاهر الحياة البهيجة فالأرض ترتدي ثوبها الأخضر والطل ينتشر في رباها كالجوهر وعبير الزهر وشذا الأرض يفوحان كالمسك والكافور وأزهار السوسن تتمايل على الورد الأحمر والطير بين ذلك كله قد أخذته النشوة ففاضت قريحته بأعذب الألحان.هكذا أجاد ابن سهل الإشبيلي تصوير المشهد من جميع جوانبه حيث أشرك عدداً كثيراً من الحواس لديه فوصف الألوان المرئية والروائح العطرية والحركة الدائبة كل ذلك في إطار التشخيص المفعم بالحياة . ومع ذلك فلكل بيت على جماله معنى خاص ومستقل وكأن الشاعر يصوغه مفرداً ثم يفرغ منه ليصوغ بيتاً جديداً له مذاقه ولونه وليصنع منه صورة جديدة.

ولعل ما يؤكد هذه الظاهرة أن سقوط بيت أو أكثر من الأبيات لايضير القصيدة كما أن تقديم بيت على بيت لايسبب خللاً في القصيدة أو يسيئ إلى معناها أو فكرتها بصورة عامة.

ولعل هذه الظاهرة في وصف الطبيعة عند شعراء الأندلس وأعني بها ظاهرة(وحدة البيت) قد سار على نهجها كثير من الشعراء ومن أبرزهم الشاعر ابن خفاجة الذي يقول في وصف النهر:

للـــه نهـر سـال في بطـحـاء   أشهى وروداً من لمـــى الحسنـاء

متعطف مثل السوار كأنــــــه   والزهر يكنفه مجر سمـــــــاء

قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً   من فضـــة في بردة خضـــراء

وغدت تحف به الغصون كأنها   هدب تحف بمقلـــة زرقـــــاء

فشكل النهر كما يصفه الشاعر في مستهل أبياته متعطفاً متعرج ولكنه في البيت الأخير مستديراً كالقرص أما لونه فأبيض كالفضة غير أنه في البيت الأخير يغدو أزرقاً.

وهذا إن دل على شي فإنما يدل على أن الشاعر الوصاف لم يكن يُعنى بالمشهد نفسه وتصويره كما

يراه أو كما يبدو له بقدر مايهمه أن يتخذ منه منطلقاً لعرض فنّه وإظهار براعته في التشبيه وقدرته على التصوير وبتعبير آخر كان الشاعر الأندلسي يجنح إلى الفن وبراعة الأداء ويحرص على التصنيع والتنميق ، وإذا كانت هذه غايته فعليه أن يترصد الزخارف ويسعى إلى التلوين حتى تبدو القصيدة كثيرة الألوان زاهية المنظر كأنها لوحة فنية أبدعتها يد رسام .

٣) الاندماج العاطفي:

عاش الشعر قديماً في كنف الصحراء فشكلت مكونات الصحراء وطبيعتها بعضاً مما يعيش معه ويتفاعل مع ما يصدر عنه فالخيل والجمل والحمار الوحشي والليل والمطر والنجوم وكثرة الترحال من مكان لآخر من أجل الماء والكلأ . هذه العوامل عاش الشاعر يراقبها بتأمل ويصفها في شعره ويتفاعل معها.

أما في العصر الأندلسي فقد لجأ الشعراء إلى تصوير مشاهد الطبيعة الجميلة التي ضمتها بلادهم وعمدوا من خلال ذلك إلى استحضار العاطفة المعبرة وذلك للتعبير عن علاقة تلك الطبيعة بوجدانهم وعاطفتهم وهم بذلك يجنحون إلى الاندماج مع تلك الطبيعة حيث يقعون تحت وطأة المنازع العاطفية ولعل من أعذب الشعر وأشجاه في الأندلس ما أثر عن الأمير الأموي عبدالرحمن الداخل من مقطوعات جميلة تنطوي على تعلقه بالطبيعة وتصويره لمنازع الشوق والحنين في نفسه من خلال مشهد نخلة فريدة في حديقة قصره في الرصافة أثارت فيه كوامن الذكريات حيث يعبر عن ذلك فيقول:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة　　تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي بالتغرب والنوى　　وطول التنائي عن بني وعن أهلـــي

ثم يناجي تلك النخلة فيقول:

نشأت بأرض أنت فيها غريبة　　فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

أما الشاعر ابن زيدون الذي يعد من كبار الشعراء في الأندلس فقد أفاض في وصف الطبيعة في تلك البلاد وأجاد في ذلك فضلاً على أنه أضاف إليها شيئا من عاطفته ولواعج نفسه مازادها جمالاً وبهاءً وعلى هذا الغرار انغمست نفسه في الأحزان وهذا ما تصوره قصيدته المحزنة الرائعة التي وجهها إلى ولادة بنت المستكفي بالله ويقول في مطلعها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طِيْب لقيانا تجافينا

لكن الشاعر لا يكتفي بوصف تلك الصورة التي يعبر فيها عن تقلب الأحوال وتبدل العلاقة ولكننا نراه يتجه إلى مظاهر الطبيعة ليتحدث عن بعض عواطفه ويقول:

حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً لياليا

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومربع اللهو صاف من تصافينا

ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنـا إلا رياحينا

يا ساري البرق غادِ القصر واسق به ... مَنْ كان صَرْفَ الهوى والودّ يسقينا

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا ... مَنْ لو على البعد حيا كان يُحيينا

٤) استهلال القصائد في الحديث عن الطبيعة:

من المظاهر المهمة التي تجلت في شعر الطبيعة استهلال الشعراء قصائدهم بالحديث عن الطبيعة وجمالها كوصف الربيع وما يحدثه من بهجة في النفس حيث تتفتح الأزهار وتفوح الورود وتخضر الأرض ومن خلال هذه المعاني يرسم الشاعر لوحاته في مطلع قصيدته وبخاصة في غرض المديح ومن تلك القصائد هذه القصيدة التي مدح فيها ابن الأبار الحاجب المنصور مستهلاً قوله بأبيات في وصف الطبيعة خلص منها إلى الإشادة بمناقب الممدوح يقول فيها:

لبس الربيع الطلق برد شبابـــه ... وافتر عن عتباه بعد عتابـــه

ملك الفصول حبا الثرى بثرائه ... متبرحاً لوهاده وهضابـــه

فأراك بالأنوار وشي بـــروده ... وأراك بالأشجار خضر قبابه

أمسى يذهبها بشمس أصيلـــه وغدا يفضفضها بدمع حبابـــه

كما ضمّن بعض الشعراء معاني المديح شيئاً من وصف الطبيعة والحديث عن ألوانها وفنونها ومن هذا القبيل ما مدح به ابن زيدون آل جهور في قوله:

زهرت أخلاقكم فابتسمـــت كابتسام الورد عن لؤلؤ طَـلْ

أو ما مدح به ابن زيدون أمير قرطبة ابن جهور إذ قال:

للجهوري أبي الوليد خلائـــق كالروض أضحكه الغمام الباكي

وحين لاذ ابن زيدون بالمعتمد بن عباد تراءى له العيش في أكنافه جنة يحار في ربوعها الشعر فقال:

أورثتني نعماك جنة عـــدن جال في وصفها فضل القريظ

كذلك وجد ابن خفاجه في بشاشة ممدوحه مايماثل بهجة الروض فيقول:

تشيم بصفحتيه بروق بِشْـــر تعيد بشاشة الروض الجديـــد

وهكذا فقد امتاز شعر الوصف الذي عنى بالحديث عن الطبيعة ببعض الخصائص الفنية التي ميزته عن غيره من الأغراض الشعرية الأخرى بل لكثرته في ذلك العصر فقد أصبح ظاهرة أدبية مال إليها كثير من الشعراء.

٣) الرثاء في العصر الأندلسي:

يعد الرثاء من الأغراض الشعرية التي نظم فيها الشعراء وبينوا تأثرهم وحزنهم على من يرثونه وكانت المرثية تسير على منهج معين تبدأ :

أولاً: بالندب : وهو بكاء المفقود والتفجع عليه.

ثانياً: التأبين : ويكون بذكر محاسنه ومناقبه.

ثالثاً: العزاء : وهو المواساة والتسلية وبيان أن الموت سنة من سنن الكون لا مفر منه لأحد.

وقد توزع الرثاء بين موضوعين كبيرين أحدهما رثاء الأفراد، والآخر رثاء المدن والممالك الزائلة أو الغاربة .

أ) **رثاء الأفراد** : وهو الذي عبر عنه كثير من الشعراء في قصائدهم سواء في رثاء أقاربهم من الأبناء والآباء أو الزوجات أو الأخوة أو في رثاء الحكام أو الأمراء، حيث نرى الشاعر ابن عبد ربه الأندلسي متأثراً بفقد ابنين له أحدهما في ريعان شبابه وأما الآخر فكان صبياً فتأثر لفراقهما ورثاهما بمراثي كثيرة منها قوله في رثاء ابنه هشام حيث انشد بعد فترة من وفاته هذه الأبيات:

بَلِيَتْ عظامك والأسـى يتجـدد   والصبر ينفد والبكـا لاينفـد

ياغائـباً لا يرتجى لإيابـه   ولقائه دون القيامـة موعـد

ماكان أحسن ملحداً ضمنتـه   لو كان ضم أبـاك ثم الملـحد

باليأس أسلوا عنك لا بتجـلدي   هيهات أين من الحزيـن تجلـد

فالشاعر يعبر في هذه الأبيات عن حزنه وأنه يتجدد وصبره ينفد والبكاء لاينفد لفقد ابنه العزيز على نفسه ويتمنى لو كان دفن معه ويذكر أنه إنما يسلو عنه باليأس من لقائه لابتجلده فلم يعد له تجلد ولا صبر.كما رثى بعض الشعراء الأندلسيين زوجاتهم اللواتي تخطفهن الموت وقد كن قرة عين لأولئك الأزواج ومن هؤلاء الشعراء أبو إسحاق الإلبيري الذي يرثي زوجته بقوله:

عُجْ بالمطي على اليباب الغامر   وارْبَعْ على قبر تضمن ناظـر

وأقر السلام عليه من ذي لوعة   صدعته صدعاً ماله من جابـر

ولو أنني أنصفتـه فـي وده   لقضيت يوم قضى ولم أستأخر

وشققت في خُلْبِ الفؤادِ ضريحه   وسقيته أبداً بماء محاجـري

ولم يختلف رثاء الأفراد في العصر الأندلسي عن العصور السابقة من حيث المعاني التي تعارف

عليها الشعراء والسير على نهج المرثية كما تقدم ، بل لقد تبع الأندلسيون أدباء المشرق في كثير من أساليبهم التي عرفوا بها كما حاكوهم في كثير من القصائد التي أنتجها أولئك الأدباء.

ب) رثاء المدن والممالك :

إن النكبات المدمرة التي حلت بالمسلمين في الأندلس والصراع المرير بينهم وبين النصارى وما آل إليه حال المسلمين من الانهيار والتفكك وما انتهت إليه دولهم ومدنهم من سقوط في يد الأعداء كل ذلك أدى إلى أن يتفاعل الشعراء الأندلسيون مع أحداث بلدانهم وأن ينظموا شعراً عرف باسم (رثاء المدن والممالك)وهو ميدان أجاد فيه الأندلسيون وأبدعوا وتفوقوا فيه على المشارقة وأتوا بالشعر الرائع والحكمة المؤثرة والوصف البديع مع ما يتضمنه شعرهم من عاطفة صادقة حزينة وشعور بالمرارة والأسى والحزن على ضياع الديار وفقد مابناه المسلمون خلال ثمانية قرون من الزمان.

ولقد كانت بداية هذا النوع من الشعر تتمثل في رثاء المدن ثم رثاء الإمارات ثم رثاء الأندلس كلها بعد أن سقطت في أيدي النصارى ويمتاز هذا النوع من الشعر بصدق العاطفة وعمق الشعور بالأسى والحزن والتصوير الواقعي لأحوال المسلمين وما صاروا إليه من تنافر واقتتال ، حتى إن الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبي قد حذر وأنذر من تلك العواقب التي ستؤول إليها الأمور إذا لم ينتبه المسلمون لحالهم ويتحدوا ويتعاونوا على قتال النصارى فيقول في أبياته:

يا أهل أندلس شدوا رحالكم ... فما المقام بها إلا من الغلط

السلك ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

من جاور الشر لايأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيات في سَفَط

ونلمس في هذا الشعر الحكمة الصادقة النابعة من التجارب المريرة والوصف الدقيق لما آلت إليه المدن والحضارة الأندلسية عندما سقطت تلك المدن الواحدة تلو الأخرى.

ويمكن أن نصنف (نقسم) هذا اللون من الرثاء في نوعين :

١) رثاء المدن والممالك الغاربة.
٢) رثاء المدن والممالك الزائلة.

والفرق بين هذين النوعين:

أن المقصود برثاء المدن والممالك الغاربة : هو رثاء تلك المدن والممالك التي غرب شمسها في عهد ملوك الطوائف فتحول أمرها من قادة إلى قادة آخرين حيث ظلت في أيدي المسلمين ولم تسقط بأيدي النصارى، والإمارت الغاربة والملوك الذين أفلت شمسهم من الكثرة بمكان، ومن الأمثلة على ذلك ماكان من سقوط دولة بني عباد التي كان يقودها المعتمد بن عباد بيد ملك المغرب آنذاك يوسف بن تاشفين الذي أنجد المعتمد في أول الأمر ثم عاد واستولى على مملكته وكان لدولة بني عباد من المكانة والسمعة ما جعل سقوطها أمراً مؤثراً في نفوس الشعراء الذين كانوا ينشدون أشعارهم في بلاط المعتضد وابنه المعتمد ويحتلون المكانة العالية في نفوس أولئك القادة فجاءت أشعارهم تبكي غروب تلك الدولة وتتأسف على انقضاءها سريعاً ومن تلك المراثي مرثية أبي بكر الداني التي يقول في مطلعها:

تبكي السماء بدمع الرائح الغـادي ... على البهاليل من أبنـــاء عبـــاد

على الجبال التي هُدَّت قواعدهــا ... وكانت الأرض منهم ذات أوتـاد

والرابيات عليها اليانعـات ذَوَتْ ... أنوارها فغدت في خفض أوهاد

وفي قصيدة أخرى يقول أبو بكر الداني:

لكل شيء من الأشياء ميقــــــات ... وللمنى من مناياهنَّ أوقـــــــات

والدهر في صبغـة الحرباء منغمسٌ ... ألون حالاته فيهــــا استحـالات

فانفض يديـك من الدنيا وساكنهــا ... فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

من كان بين الندى والبأس أنصلــه ... هنديـــــــة وعطاياه هنـــيدات

أنكرت إلا التواءً للقيـــود بـــــه ... وكيف تذكر في الروضات حيات

وقلت هن ذؤابات فلـــم عكســـت ... مِن رأسه نحو رجليــه الذوابـــات

رأوه ليثاً فخافوا منه عـــــــــادية عذرتهم فلعدوى الليث عـــــادات

وليس أبو بكر الداني وحده الذي رثى تلك المدن الغاربة بل رثاها حتى الملوك ومنهم المعتمد بن عباد الذي له قصائد كثيرة في هذا الجانب رثى فيها مملكته بل رثى فيها نفسه حين اقتيد أسيراً ومعه زوجاته وبناته مما أوجد رثاءً حاراً يتضح فيه صدق العاطفة وألم المعاناة.

أما المقصود برثاء المدن الزائلة :فهي تلك المدن التي سقطت في أيدي النصارى وكان سقوطها سبباً في أفول شمس الأندلس إلى يومنا هذا وقد جاءت تلك القصائد متسلسلة متوالية ليست مجتمعة في آن واحد فقد كانت المدن الأندلسية تسقط واحدة تلو الأخرى وهو ماجعل الشعراء يتفاعلون مع تلك النكبات المتواصلة خلال عقود من الزمان ومن أشهر تلك المراثي مرثية أبي البقاء صالح ا بن شريف الرُّنْـدِي الذي يقول في مطلعها:

لكل شيء إذا ماتمَّ نقصان فلا يُغَرُّ بطِيْب العيش إنسان

ويمكن القول بأن هذه القصيدة هي أشهر قصيدة قيلت في هذا الجانب ولكن لايمكن الحكم بأنها أحسن ما قيل في هذه المحنة ، بل ما قيل كثير ومن ذلك سينية ابن الأبار ورائية ابن عبدون وما تحملانه من الأداء الفني المؤثر.

وقصيدة ابن الرندي لم تنظم إبان خروج الأندلسيين من الأندلس وإنما نظمت أثناء محنة سقوط البلدان في الجملة وعلى وجه التحديد سنة (٦٥٥هـ) حين تنازل ملوك بني الأحمر عن عدد كبير من القواعد الأندلسية لصالح النصارى ، وتمتاز قصيدة ابن الرندي بأنها مقسمة:

فقد جعل قسماً منها وهو الأول في شكوى الدهر وغدره وضرب المثل بالدول التي سقطت والملوك الذين قتلوا وأبعدوا عن ملكهم رغم عظمة ملكهم وسعته فأورد ابن الرندي في القصيدة أسماء لبعض الملوك الذين ذهب ملكهم وأورد أسماء للمدن التي سقطت ثم خلص إلى عظم الفجيعة في الأندلس وجسامة الخطب في فقدها وهو أمر جلّ عن العزاء واستعصى عن السلوان

حيث يقول ابن الرندي في القسم الأول:

لكل شيء إذا ما تم نقصان — فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول — من سرَّه زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تُبْقِي على أحد — ولا يدوم على حال لها شأن

يمزق الدهر حتما كل سابغةٍ — إذا نَبَتْ مشرفيات وخرصان

ويُنْتَضَى كل سيف للفناء ولو — كان ابن ذي يزن والغمد غمدان

أين الملوك ذوو التيجان من يَمَنٍ — وأيــن منهم أكاليلٌ وتيجــان

وأين ماشاده شداد في (إرَمٍ) — وأين ما ساسه في الفرس ساسان

وأين ما حازه قارون من ذهب — وأين عاد وشداد وقحطان

أتى على الكل أمر لا مَرَدَّ له — حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

دهى الجزيرة أمر لا مَرَدَّ له — هوى له أحد وأنْهَدَّ ثهلان

أما القسم الثاني من قصيدة ابن الرندي فهي تحسر على المدن الجميلة العظيمة التي سقطت وكانت تتلو الواحدة منها الأخرى وكأنها في سباق إلى الهاوية والطريف في القصيدة أن الشاعر يذكر كل مدينة بأجمل صفاتها وأشهر معالمها حيث يرثيها بصورة مؤثرة إذ يقول:

فاسأل بلنسية ماشأن مرسيــــة — وأين شاطبة أم أين جيـــان

وأين قرطبة دار العلوم فكـــم — مِن عالم قد سما فيها له شأن

وأين حمص وما تحويه من نُزَهٍ — ونهرها العذب فيّاض وملآن

قواعدٌ كُنَّ أركان البلاد فمـــا — عسى البقاء إذا لم تبقَ أركان

أما القسم الثالث من هذه القصيدة فهو قسم العاطفة الدينية وإظهارها وتجسيمها حتى تبدو المصيبة صارخة تغير الوجوه وتعكر النفوس وتصم الآذان وتلك وسيلة استعملها كل شعراء الرثاء في

الأندلس فلقد كانت الصفة الأولى والأخيرة هي الصفة الإسلامية ومن ذلك قولهم عندما سقطت الأندلس : إذ صارت المساجد كنائس واستبدلت النواقيس والصلبان بالقبلة وبكت المحاريب وشكت المنابر فإن ذكر هذه الرزايا يثير نخوة المسلم لينطلق بالجهاد إذا كان فيه بقيه من النخوة الإسلامية يقول ابن الرندي:

تبكي الحنيفية البيضاء من أسَفٍ ... كما بكى لفراق الإلـف هيمات

على ديار من الإسـلام خاليـــةٍ ... قد أقفرت ولها بالكفر عمـران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهنَّ إلا نواقيس وصُلبـــان

حتى المحاريب تبكي وهي جامـدة ... حتى المنابـر ترثي وهي عيدان

ياغافلاً وله في الدهر موعـــظة ... إن كنت في سِنَةٍ فالدهر يقظـان

وماشياً مرحاً يلهيه موطنـــه ... أبَعْدَ حمص تغر المرء أوطـان؟

تلك المصيبة أنْسَتْ ما تقدَّمـها ... وما لها مع طول الدهـر نسيـان

أما القسم الرابع من هذه القصيدة وهو مرحلة استنفار المسلمين الذين يقيمون في شمال أفريقيا حيث نجد الشاعر لا يقف عند مجرد الاستغاثة وإثارة الحماس وإنما يستغضب القوم ويكاد يسخر من تقاعسهم عن نجدة إخوانهم ووقوفهم معهم في تلك المحنة ومشاركتهم في الدفاع عن بلاد الأندلس حيث يقول:

ياراكبين عتاق الخيل ضامـرة ... كأنها في مجال السبق عقـبان

وحاملين سيوف الهند مرهفـة ... كأنها في ظلام النقـع نيـران

وراتعين وراء البحر في دَعَـة ... لهم بأوطانهم عِـزٌ وسلطـان

أعندكم نبأ من أهل أندلـس ... فقد سرى بحديث القوم ركـبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهمْ ... قتلى وأسرى فما يهتزُّ إنسـان

ماذا التقاطع في الإسلام بينكـــمُ وأنتمُ ياعباد اللـــــه إخـــوان

أما القسم الخامس والأخير من هذه القصيدة فينطلق فيه الشاعر من مخاطبة إنسانية المسلم بعد أن أثار نخوته الدينية فيصف حال القوم وما قد انحدروا إليه من ذلّ بعد عزة وعبودية بعد سيادة وضياع بعد منعة ويباعون في الأسواق كما تباع الماشية ويفرقون بين الولد وأبيه وبين الرضيع وأمه ، حيث يقدم ابن الرندي هذه القصيدة في إطار جيد من الكلم وحسن القول بحيث خلدت هذه الصور قصيدته وجعلتها في مقدمة القصائد المؤثرة في هذا الموضوع ، حيث يقول في هذا القسم من القصيدة:

ألا نفوسٌ أبيَّاتٌ لها هِمَـــمٌ أمَا على الخير أنصار وأعـــوان

يا مَن لذلة قوم بعد عزِّهِـــمُ أحال حالهم كفـــر وطغـــيان

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبـــدان

فإذ تراهم حيارى لا دليل لـــهم عليـــهم من ثياب الـذل ألـــوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهـــمُ لهالك الأمر واستهوتك أحـــزان

يارب أم وطفل حيل بينهـــما كما تفـــرق أرواح وأبـــدان

وطفلة مثل حُسْن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقـــوت ومرجـــان

يقودها العِلجُ للمكروه مكرهـــة والعين باكية والقلـــب حيـــران

لمثل هذا يذوب القلب من كَمَـــد إنْ كان في القلب إسلام وإيمـــان

فهذه القصيدة تمثل جانباً مهماً من جوانب موضوعات الرثاء في الشعر الأندلسي وبخاصة في رثاء المدن والمماليك الذاهبة (الزائلة)، وفيها يعرض الشاعر بعاطفة دينية مؤثرة ما حل بتلك البلاد وما أصابها من حيف وظلم بعد أن اختلف أهلها وتنازعوا أمرهم فهاجمهم الأعداء وأبعدوهم عن عزهم الذي عاشوا فيه وملكهم الذي ظلوا يحكمون فيه الأندلس قرابة ثمانية قرون من الزمان.

وهذه القصيدة وهي تعبر عن وجدان صادق تعاطف مع تلك الأحداث وصاغها بصورة معبرة فإنها

تدلنا كذلك على مشاركة الأدباء في مثل هذه الحوادث وتعليلها ومحاولة معالجتها بالأسلوب الناجح .

وقصيدة أخرى في رثاء مدن الأندلس للشاعر ابن الأبار القضاعي البلنسي المتوفي(٦٥٧هـ) حيث قالها في رثاء مدينة بلنسية حينما كان الأسبان يحاصرونها فقد نظم هذه القصيدة بعد أن استصرخ زياد بن مردنيش والي بلنسية بعبد الواحد بن حفص أمير أفريقيا يحثه على النجدة وموافاته سريعاً قبل أن تذهب بلنسية من أيدي المسلمين حيث يقول الشاعر في قصيدته السينية:

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جَدُّها تعسا

في كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عُرُسا

وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسماً ... جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا

وصيرتها العوادي العابثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف مالمسا

يا للمساجد عادت للعدا بيعاً ... وللنداء غدا أثنائها جرساً

وهذه القصيدة من القصائد التي وقفت عند أحداث الأندلس وتفاعلت معها وكان ذلك سبباً في نتاج أدبي وفير خلد إلى زماننا هذا وميز الشعر الأندلسي فأصبحت هذه السمة من السمات التي تميز بها أدباء المغرب على أدباء المشرق.

<u>وبعد هذه النماذج التي عرضت في رثاء المدن والممالك بالأندلس فإنه يتضح لنا ملامح بعينها وخصائص أدبية تميز ذلك الشعر عن غيره من موضوعات الشعر الأندلسي ومن تلك الملامح ما يلي:</u>

١)السمة الأولى : تتمثل بأن أكثر الشعراء كانوا صادقين مع أنفسهم حين نظموا قصائدهم فأفصحوا بصراحة تامة عن أسباب سقوط الأندلس فهم يعزون ذلك إلى الترف الشديد الذي أنغمس فيه الأندلسيون في حياتهم وعدم انتباههم لما يجري حولهم ، ومن الناحية الأخرى فقد كان طمع حكام الأقاليم وأنانيتهم وتناحرهم وكثرة اختلافهم ونشوب الحروب بينهم ونسيان العدو المتربص بهم من أهم العوامل التي أضعفت قوة الأندلس وجعلتها صيداً سهلاً للمتربصين.

٢) أما السمة الثانية : فهي الحنين الشديد الذي كان يعبر عنه الشعراء في قصائدهم وهم يصورون خروجهم من الأندلس وذهابهم من الأرض التي أحبوها ونالوا فيها من رغد العيش وتذكروا مع ذلك مدنها ومعالمها وآثارها وجمال طبيعتها كل ذلك في أسلوب خلاب يدعو النفس إلى الحسرة والأسى والتألم ويزداد الشعر حزناً إذا ذكر الشاعر ما حل بتلك المدن أو تلك الديار من هتك ودمار وخراب وحريق.

٣)أما السمة الثالثة : التي لازمت هذا اللون من الشعر فهي تنبيه العاطفة الإسلامية الدينية وإذكاء المشاعر الإسلامية تجاه ما حدث في بلاد الأندلس فالمساجد تهدم أو تحول إلى كنائس والمآذن تحول إلى أبراج للكنائس والمنابر تشكو والمحاريب تبكي وأبناء المسلمين يباعون في الأسواق كالسلع وبناتهم يؤسرن ونساؤهم يغتصبن وأطفالهم يقتلون أو يُنَصَّرون والرُّضَّع يفصلون عن أمهاتهم إلى غير ذلك من المعاني التي تعرض لها الشعراء وهم يصفون ما حل بالمسلمين في الأندلس حين سقطت دولتهم.

٤)أما السمة الرابعة : استصراخ الشاعر وطلبه النجدة من المسلمين في ديار الإسلام الأخرى واستنفار الفرسان بداعي النخوة أو بداعي الجهاد الديني الذي يدفع بالمجاهد إلى النصر أو الجنة ، وقد كان الاستنجاد في شعر الشعراء يأخذ أشكالاً متعددة تكون حيناً عن طريق المديح وأحياناً أخرى عن طريق التقريع وأحياناً ثالثة بالدعوة إلى الجهاد وكان الشعراء يتخذون أساليب شتى في تنبيه المسلمين لما يجري على إخوانهم في الأندلس.

وكانت السمة الرابعة أهم وسيلة في تفصيل الأحداث التي كانت تجري في الأندلس وبيان مافيها من البشاعة والألم.

٥) ومن السمات التي عُرف بها رثاء المدن والممالك ما التزمه بعض الشعراء من الابتداء بمعاني الحكمة والحديث عن أحوال الدهر وعن أحوال الدنيا وتقلباتها وما يجري فيها من التغيير السريع وكذا الحديث عن أحوال التاريخ في القديم وما ظهر فيه من مواعظ وعبر ولعل أوضح مثال على ذلك قصيدة ابن الرندي النونية ورائية ابن عبدون وغير ذلك من القصائد التي بدأت بالحكمة.

٦) وإذا ما انتقلنا من السمات الموضوعية إلى السمات الأسلوبية سنلاحظ أن جميع الشعراء الذين نظموا في رثاء الأندلس قد عمدوا إلى المحسنات البديعية وأسرف بعضهم بالاعتماد عليها وليس من شك بأن قصائد الرثاء ووجوب ظهورها بمظهر الوقار ولما فيها من صدق العاطفة وتدفق المشاعر فإنه لاينبغي أن يتحرى الشعراء فيها من الزينة اللفظية إلا مايجيء عرضاً ولكن الأمر لم يكن كذلك في المراثي الأندلسية والسبب في ذلك أن هذا اللون لم يظهر إلا في أواخر القرن الخامس الهجري وهو عصر الصناعة اللفظية في المشرق ولما كانت الأندلس تجري دائماً في مضمار الشرق فقد انتقلت الصناعة اللفظية إليها سريعاً ورغم ذلك نجد أن القصائد التي وصلت إلينا لاتمثل الكثرة وإنما هي معتدلة في أغلب ما وصل إلينا فليس أدل على ذلك من قصيدة الرندي وغيرها من القصائد التي قيلت في هذا الغرض.

شعر الحكمة في العصر الأندلسي :

إن المتأمل في شعر الحكمة في العصر الأندلسي يجدها مبثوثة ومتناثرة في قصائد الشعراء التي تميل إلى التأمل والتفكر وإلى النظرات العميقة في مظاهر الحياة وما يطرأ عليها وفي تقلباتها وتحولاتها كما نجد ذلك الشعر في قصائد التوبة والندم والاستغفار وكذا في القصائد التي تحدث فيها الشعراء عن محنة الأندلس وما حل فيها من دمار وما آلت إليه مدنها وإماراتها من انهيار وسقوط

في يد النصارى كما أن بعض الشعراء عاشوا في أيام شبابهم عيشة اللهو والمرح والعبث، وفي أخريات حياتهم تأملوا في تلك الأيام وتحسروا على انقضائها وتألموا على ماكان فيها من المعاصي والذنوب وإذا كان شعر المجون قد انتشر بين الشعراء في هذا العصر فإن شعر الحكمة والندم يشكل رد فعل على ذلك النوع فقد عبر الشعراء عن مشاعرهم تجاه كثير من المواقف التي مروا بها .

ومن أشهر شعراء الحكمة: أبو عامر بن شهيب ، وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز ، ويحيى ابن الحكم الغزال ، وابن عبد ربه الأندلسي. ومن نماذج ذلك الشعر ما يظهر في أبيات ابن عبد ربه التي وصف فيها الدنيا بأنها دار فجائع وإنها لا تدوم على حال فإذا أخضر منها جانب جف منها جانب يقول:

ألا إنما الدنيا عُصَارة أيكـــة ... إذا أخضرَّ منها جانب جفَّ جانـــب

هي الدار ما الآمال إلا فجائع ... عليها وما اللـــــــذات إلا مصـــائب

فكم سخنت بالأمس عين قريرة ... وقرت عيون دمعها اليوم ساكـــــب

فلا تكتحل عيناك منها بعبرة ... على ذاهـــــب منها فإنـــــك ذاهـــب

وشاعر آخر وهو ابن حمديس الصقلي يتأثر بما صدر منه أيام الشباب فيبكي ذنوبه ويؤوب إلى خالقه تعالى في نظرة خاشعة متألمة حيث يقول مخاطباً تلك الذنوب التي كثيرا ما ارتكبها في غمرة الحياة :

يا ذنوبـــي ثقّلت والله ظهري ... بان عـذري فكيف يقبل عـــذري

كلما تبت ساعـــة عدت أخرى ... لضروب من سوء فعلي وهجري

دبَّ موت السكون في حركاتي ... وخبا في رماده حـــرٌّ جمـــري

يا رفيـــقاً بعبده ومحيـــــطاً ... علمه باختـــلاف سري وجـــهري

مِلْ بقلبي إلى صلاح فســـادي ... منه واجبـــر برأفة منك كســـري

وأجرنـــي بما جناه لســـاني وتناجـــت به وســـاوس فكـــري

الموشحات الأندلسية :

من مظاهر التجديد ظهور هذا الفن و انتشاره، والتوشيح نمط من أنماط الكلام المنظوم انبثق في الأندلس في أواخر القرن الثالث الهجري وقد عرفه ابن سناء الملك (الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص) وهذا التعريف لا يفي بطبيعة الموشح ومقطوعاته وأوزانه وقوافيه وهو تعريف عام في السياق .

وفي تعريف لأحد المعاصرين بأنه : منظومة شعرية غنائية تتشكل من مقطوعات مستقلة تتوالى الواحدة تلو الأخرى وتتشكل كل مقطوعة من قسمين يختلفان في نظم القوافي والوزن ومن هنا فإن الموشح لا يتقيد بوزن معين ولا بقافية موحدة وإنما تتنوع فيه القوافي والأوزان على أن الموشح يختلف عن القصيدة من عدة وجوه فمن حيث الوزن العروضي تسير القصيدة الشعرية على الأوزان المعروفة أما بالنسبة للموشحات فإنها تخرج عن هذا الإطار وتخرج عن النسق المعين المتبع في القصيدة المعروفة وتتصل الموشحات اتصالاً وثيقاً بطريقة الإنشاد وأغلب الظن أنها كانت توزن لغرض التلحين .

نشأة الموشحات :

على الرغم من أن المشرق كان موطن القصيد والزجل وأنه كان عامرا بفحول الرجز والشعر وأعلام الخطابة فإنه لم يشهد منحى جاداً في مجال التجديد يمس فن النظم ويسفرعن مثل فن التوشيح لقد ظهرت أنماط من هذا القبيل ومنها (المسمطات والمخمسات والمزدوجات ونحوها) ولكن هذه الأنماط لم تكن لتخرج عن فلك الشعر وقواعده السائدة كما أنها لم تلق رواجاً وإقبالاً ولم يأبه للنظم عليها أعلام من الشعراء . وأغلب الظن أن طبيعة الحياة الاجتماعية والأدبية في الشام

والعراق وغير ذلك من الأمصار العربية لم تكن مواتية لحركات التجديد على نحو حاسم .

فمن المعروف أن شعراء العربية كانوا بطبيعتهم أميل إلى المحافظة على القيم الموروثة فالشعر كان لديهم ديوان العرب وصورة وجودهم ورمز إبداعهم ومرآة حياتهم . ولذلك كانوا يتهيبون كثيراً من التغيير المفاجئ الذي يطرأ على القصيدة الشعرية سواء في أوزانها أو في منهجها العمودي المعروف ، ومن هنا فلم تكن السبل إلى التجديد في الشعر مُيسرة في المشرق حيث المناخ غير مواتٍ لنمو تلك البذور وإن وجدت على حين كان الأمر مغايراً في الأندلس ، ولعل من الدوافع التي أسهمت في نشأة الموشحات :

١) ما يتصل بالظروف الاجتماعية وبظروف البيئة.

٢) الطبيعة الجميلة التي حظيت بها الأندلس.

٣) تلك الحياة المترفة التي عاشها الأندلسيون في ذلك العصر والتي دعت إلى اللهو والترف لذلك فقد استحدثت فنون القول في تلك الأحوال .

ففي القرن الثالث الهجري حدث نوع من الاستقرار في الأندلس إذ ساد الأمن فجنح الناس للهو فانتشر الغناء وشاعت الموسيقى ولم يكن (زرياب) إلا ظاهرة اجتماعية كان لها أثرها في إنماء الحياة في ذلك العصر والسير في ذلك الاتجاه الذي أراده كثير من الأندلسيين وقد صحب ذلك تمازج بين السكان واختلاط بعضهم ببعض ودخول عناصر كثيرة في الإسلام وتمثلهم بآداب العرب ولغتهم وكان من مظاهر هذا الامتزاج أن تنوعت الأذواق وتعددت المنازع فحملت الحياة الأدبية تلك الاتجاهات المختلفة التي مال إليها الناس .

إن نشأة الموشح شأنه شأن ظهور أي فن لا يبدو واضح المعالم فغالباً ما تضيع معالم الخطوات الأولى والمحاولات الرائدة ويعفوا عليها الزمن وتبعاً لهذا الغموض فقد بات من المتعذر على وجه الدقة معرفة أول صانع لها أو تحديد سنة ظهورها .

والأقدمون أنفسهم لم يجزموا في ذلك فابن خلدون يقول (وكان المخترع لها من جزيرة الأندلس

مقدم بن معافي القبري من شعراء الأمير محمد بن عبدا لله المرواني) وأخذ عنه أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، أما ابن بسام فيقول في كتابه الذخيرة (وأول من وضع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها فيما بلغني محمد بن حمود القبري الضرير) ويبدو من هذين الرأيين أنه لم يثبت باتفاق مخترع هذا الفن والاثنان المشار إليهما كلاهما من قرية (قبره) وقد عاشا في القرن الثالث الهجري وإن كان كثير من الباحثين المعاصرين والقدماء يرون أن مقدم بن معافى هو مخترع هذا الفن فقد كان شاعر الأمير وكان ذائع الصيت بعيد الشهرة .

أجزاء الموشح :

يتكون الموشح في بنائه على نمط مخصوص إذ يتكون من عدة أجزاء وهذه الأجزاء لها أسماء اصطلح عليها الدارسون فالموشح يتركب من وحدتين تتكرر من خلاله عدة مرات

أ) الوحـدة الأولـى : بمثابة المطلع .

ب) الوحدة الثانيـة : وتسمى الغصن وتتكون من عدة عناصر هي المطلع ، القفل ، الخرجة،

أما أجزاء الموشح فهي كالتالي :

١) المطلع: وبه تستهل الموشحة ويسمى بالمذهب لأن ما بعده من الأقفال تسير على وزنه فهو كالمذهب الملتزم طوال الموشح .

٢) القفل: وسمي بذلك لأن به ينتهي معنى البيت وعندما يتردد المطلع بنفس النظام فإنه يسمى قفلاً وعدد الأقفال في الموشح خمسة وقد تزيد وقد تنقص .

٣) الغصن: وهو الوحدة الثانية من الموشحة الذي يتكون من المطلع والقفل والخرجة وأقل عدد الأغصان اثنان وفي العادة لا تزيد عن أربعة.

٤) الدور: ويسمى (البيت) ويتكون غالباً من أكثر من ثلاثة أو أربعة شطور ويتألف غالباً من اجتماع الوحدتين المتقدمتين في الموشح .

٥) الخرجة: وهي عبارة عن القفل الأخير من الموشح وتسمى مركز الموشح لأن كثيراً ممن ينظمون هذا اللون يهتمون به أكثر من غيره من أجزاء الموشح وهذه الخرجة لا تكون عادية بل فيها شئ من الغرابة والطرفة والتجديد حيث تكون خفيفة في معناها وغالباً يستعيره الوشاح من قصيدة مشهورة ليلفت النظر إليها . وقد خص ابن سناء الملك عنصر الخرجة باهتمام ووصفها بقوله : (والشرط فيها أن تكون حجاجية من قبل السخف قزمانية من قبل اللحن حارة محرقة وهي بزار الموشح وسكره ومسكه وعنبره) والخرجة هي الجزء الوحيد في الموشح الذي يباح فيه اللحن كما يستحسن أن تكونه عامية أو أعجمية .

موضوعات الموشح :

اشتملت الموشحات على بعض المعاني والموضوعات ومن ذلك وصف الطبيعة والغزل والمديح الذي كان يتوجه لبعض الخلفاء و الأمراء الذين شغفوا بهذا اللون وأعجبوا به وأكثر الموشحات التي قيلت في المديح قد مزجت بين ثنايا الطبيعة والغزل قبل أن تدلف إلى صميم المديح .

ولعل أشهر موشحة في هذا الجانب هي موشحة لسان الدين ابن الخطيب في مدح الأمير الغني بالله صاحب غرناطة ، وموشحته تلك تعد من اللون الراقي المتماسك في هذا الفن فقد رصَّعها بوصف الطبيعة وزينها بالصور البديعة وداعب الورد ولاطف الزهر .

أما الموشحات التي وصفت الطبيعة فقد كثرت لدى شعراء الأندلس ومن تلك موشحة أبو جعفر بن سعيد التي يقول فيها :

ذهبت شمس الأصيل فضَّة كالنهر
أي نهر كالمدامة
صيَّر الظلَّ فدامه
نسجته الريح لامه
وثنت للغصن لامه
فهو كالعضب الأصيل حفّ بالشفر
مضحكاً ثغر الكمام
مبكياً جفن الغمام
منطقاً ورق الحمام

فلهذا بالقبول خطّ كالسطر

وعد الحب فأخلف

واشتهى المطل فسوّف

ورسولي قد تعرّف

منه بما أدري فحرّف

بالله قلي يا رسولي ليش يغيب بدري

النثر في العصر الأندلسي

أولا: الكتابة الديوانية :

كان النثر في الأندلس يقتفي أثر قرينه في المشرق وينسج على منواله ويسير على نهجه ويجري في مضماره وكان في الأندلس كما كان في المشرق عدد كبير من الكتاب الذين رق أسلوبهم وراق نهجهم وامسكوا من الكتابة بخير زمام وملكوا منها ناحية الإتقان وضروب البيان . غير أن الأمر الذي يدعو إلى الدهشة هو أن كبار كتاب الأندلس هم أنفسهم كبار شعرائها المرموقين من أمثال ابن زيدون وابن شهيد وأبي حفص بن برد وابن دراج القصطلي ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم .

على أن هناك ظاهرة تستوقف النظر حقاً فإن الأدباء الذين ذكرناهم من نجوم الشعر في الأندلس حين يكتبون يحوزون إعجابنا ويثيرون دهشتنا بجمعهم بين جوهري الشعر والنثر والإجادة فيهما على حد سواء إذ إن أساتذتهم المشارقة من الكتاب كانوا على إجادتهم للكتابة تضمحل أنغامهم وتقصر قافيتهم حين ينظمون الشعر ونستطيع أن نذكر منهم أبا الفضل بن العميد وأبا بكر الخوارزمي والصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذاني وفي العصور المتأخرة نسبياً القاضي الفاضل والعماد الأصبهاني فأولئك جميعاً كان شعرهم في الجودة دون نثرهم ولذلك نشأ في المشرق ما سمى بشعر الكُتّاب أي شعر هذه الطبقة الممتازة من الكتاب الذين لا يَسْمُوا شعرهم إلى مستوى نثرهم .

وأما في الأندلس فإن رسائل ابن برد وابن زيدون وابن شُهيد وابن دراج القصطلي ولسان الدين ابن الخطيب وغيرهم تحتل مقام الإعجاب والتقدير وإن كانت تسير تماماً على نهج رسائل الإعلام من الكتاب

المشرقيين سواء منها الرسائل الديوانية أو الرسائل الإخوانية ويقصد بالرسائل الديوانية :هي ذلك اللون الذي يعالج الأمور الإدارية والسياسية و الحربية ويتولى أمور المكاتبات وتصدر من خلاله المراسيم والتقاليد والمنشورات التي توجه إلى عامة الشعب .

والرسائل الديوانية : يقوم على كتابتها كتاب بارزون أخذوا ناحية البيان وأمسكوا بزمام الإبداع وتفوقوا من الناحية الأدبية والبلاغية فأصبحت رسائلهم تسير على نهج أدبي وفني لا نفرق بينه وبين الرسائل الأدبية الأخرى في جانب الشكل والتصوير الأدبي .

والرسالة الديوانية في الأندلس نشأت مبكرة منذ قيام الدولة الأندلسية وتحديداً في عصر الولاة الذين استعانوا بها في كتابة الأمور الإدارية والسياسية في دولتهم.

لكن الرسالة الديوانية تطورت بحق وازدهرت وأصبحت علامة بارزة في النثر الفني بالأندلس في عهد الدولة الأموية وكذلك في عهد ملوك الطوائف .

فحينما قامت دولة الأمويين بقيادة عبد الرحمن الداخل ومن بعده من أبنائه وأحفاده استعان أولئك الخلفاء بالرسائل الديوانية في كتابة الجوانب السياسية والحربية .كما أصدروا من خلالها : المراسيم و التقاليد والمنشورات الموجهة إلى الشعب وقد أبدع كتاب كثيرون في ذلك العهد في صياغة الكتابة الديوانية فكانت تعالج تلك الرسائل موضوعات مختلفة وتساعد في تسيير أمور الدولة وتتصدى للفتن والأحداث العظيمة التي كادت أن تقع في عهد الدولة الأموية .

ومن نماذج ذلك هذه الرسالة التي كتبها أبو حفص بن برد سنة(٤١٤هجري) إلى هذيل ابن رزين الذي استقل ببعض أجزاء تلك الدولة وأراد أن ينفرد بها وكادت أن تقع الفتنة فكتب إليه أبوحفص منبهاً ومحذراً ومحاولاً إعادته إلى نطاق الطاعة التي يبدوا أنه شقّ عصاها فيقول ابن برد(أما بعد آتاك الله رشدك وأجزل من توفيقه قسطك فإن الله تعالى خلق الخلق غنياً عنهم وأنشأهم بمهل غير مهمل بل ليحصي آثارهم وليبلو أخبارهم وجعلهم أصنافاً متباينين وأطواراً مختلفين فمنهم المختص بالطاعة ومنهم المختص بالمعصية وبين الفريقين أقوام خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ....) .

إن ابن برد يلجأ إلي الترغيب والمصانعة لاستعادة الخارج على السلطان وتراه يقلد أبا الفضل ابن العميد حين بعث برسالة إلى خارج على السلطان عمد فيها إلى الترغيب والترهيب معاً والفرق بين الرسالتين هو الفرق بين الأستاذ والتلميذ يقول ابن العميد (كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك وإعراض عنك فإنك تدل بسابق حرمة وتمت بسالف خدمة .....)

ويلحظ في هاتين الرسالتين وإن اتفقتا في الموضوع وهو الكتابة أو الترغيب والمصانعة لاستعادة الخارج على السلطان فإنه من حيث الأسلوب الفني والشكل نجد كل رسالة تعتمد على صياغة أدبية . فابن العميد يميل في أسلوبه إلى عبارات موجزة وإلى المعاني التي توجد التضاد بين الشيئين وهو يعتمد في ذلك على محولته لاسترضاء ذلك الشخص وإعادته ثانية. وقد استعان بالسجع في جميع مناطق الرسالة مع بعض الفنون البديعية الأخرى التي نراه لا يتكلف في استخدامها وإنما هي الصفة الأدبية التي تجعله يختار ما يراه مناسباً بتأنق وحسن صياغة .

أما بالنسبة لأبي حفص ابن برد فإنه يعتمد في رسالته على الاقتباس من المعاني القرآنية وعلى أسلوب الوعظ والتذكير فيحاول من خلال ذلك إرجاع ذلك الخارج على طاعة السلطان، كما أنه يفصل في معانيه ولذا تطول الرسائل لديه وهو يستخدم في ذلك الأساليب الجميلة ويعتمد على البديع كالسجع والطباق وهو مع ذلك لا يرقى إلى الأسلوب الذي قدمه ابن العميد في رسالته السابقة.

*** نشأت الرسائل الديوانية في الأندلس :**

لقد كان فن الرسالة من أسبق ألوان النثر الفني ظهوراً في الأندلس حيث اهتم الأندلسيون منذ الفتح بالرسائل الديوانية وقد كان نشوء تلك الدولة في الأندلس واختلاف مهامها وتعدد وظائفها السياسية والاجتماعية والإدارية دافعاً قويّاً لنشوء فن الرسالة ليؤدي هذه المهام وتلك الوظائف وعندما أخذت هذه الدولة من التمدن والتحضر بكل سبب زادت حاجتها إلى كتابة الرسائل الديوانية لتواكب مهامها الجديدة وتساهم في تثبيت دعائمها وتنظيم مجتمعها وإلى ذلك يشير ابن خلدون بقوله (وإنما أكثر الحاجة إليها في

الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة من المقاصد فصار الكتاب يؤدي كُنْـهَ الحاجة) وقد اتخذ وُلاة الأندلس وأمراؤها منذ بداية القرن الثاني كُتّاباً يكتبون لهم فيما يصدر عنهم من رسائل وفيما يكاتبون به عُمّالهم وَوُلاتهم ويهدّدُون به الخارجين على حكمهم.

*** أما بالنسبة للخصائص الفنية لهذه الرسائل :**

فإنها تشبه إلى حد كبير تلك الخصائص الفنية التي اتسمت بها الرسائل في المشرق أيام الدولة الأموية فهي في بداياتها أي في القرن الثاني الهجري كانت تتسم بالبساطة والبعد عن التعقيد والإيجاز في القول والقصد في التعبير والابتعاد عن المحسنات البديعية إلا ما جاء فيها عفو الخاطر دون تكلف أو افتعال.

ولعل ذلك يعود إلى أن المشرق كان هو المصدر الأول للاتجاهات الأدبية والثقافية إضافة إلى أن معظم كُتّاب هذا القرن كانوا مشارقة الأصل والثقافة فساروا على ما عرف في المشرق من أساليب بيانية .

أما في القرن الثالث الهجري : فقد تطور أدب الرسائل تطوراً ملحوظاً من الناحيتين الموضوعية والفنية وذلك بفضل التطور الأدبي والثقافي والحضاري الذي شهدته الأندلس في هذا القرن .

فمن الناحية الموضوعية تعددت آفاق الرسائل الرسمية واتسعت ميادينها بتعدد مهام الكتاب ومسؤولياتهم فزادت تلك الرسائل التي تعالج الموضوعات الإدارية والتنظيمية والسياسية والعسكرية.

أما من الناحية الفنية فقد مال كتاب الرسائل إلى التأنق والتجميل في تحبير رسائلهم باستعمال الألوان البديعية المختلفة بما سَمَى بالرسالة إلى مرتبة الفن والإبداع حتى اشتهرت عندهم بعض الرسائل لبلاغتها.

أما في القرن الرابع الهجري :فكان مجيئه بداية مرحلة جديدة من مراحل تطور أدب الرسائل إذ أنه قد تطور تطوراً كبيراً فاق ما مرّ به في القرن السابق مما يدفع الباحث إلى القول بأنه قد وضع في هذا القرن بذور نهضة أدب الرسائل في الأندلس التي بلغت أوجها في القرن الخامس الهجري .

ومردّ ذلك عوامل متعددة يتعلق بعضها بـ

١.الازدهار السياسي التي بلغته الدولة الأموية في هذا القرن الذي يرتبط بقيام الخلافة الأموية في الأندلس.

٢.اتساع رقعة الدولة وامتداد سلطانها وتعدد جوانب اتصالاتها واختصاصاتها ولا سيما الخارجية منها .

وقد تفرعت خطة الكتابة في هذا القرن إلى صنفين :

١- الكتابة العليا: ومهمتها الإشراف على جميع مكتبات الدولة الرسمية.

٢- الكتابة الخاصة: وتعنى بمكاتبات الأمير ومخاطباته الخاصة.

وقد نبغ في هذا القرن عدد كبير من الكتاب البلغاء ووضعت فيهم بعض المصنفات التي قسمتهم إلى طبقات بحسب مقدرتهم الكتابية وإجادتهم الفنية في تحبير الرسائل ومن هذه المصنفات :

كتاب(طبقات الكتاب بالأندلس) للأفَشْتِيْن .

ونبغ في هذا القرن عدد كبير من الكتاب منهم:عمر بن عثمان الذي ألف رسالة في مناقضة (رسالة اليتيمة) لابن المقفع، ومنهم أحمد بن موسى الرازي الذي كان كاتباً بليغاً ويوسف بن سليمان ومحمد بن عبد الرؤوف وممن نبغ في أواخر هذا القرن الجزيلي وابن برد الأكبر وابن دراج القصطلي .

وقد تطور أدب الرسائل في هذا القرن تطوراً كبيراً من الناحيتين الموضوعية والفنية ،

فمن الناحية الموضوعية زادت الرسائل الديوانية وتدفقت سيولها وتنوعت أغراضها فطفق الكُتَّاب ينشئون الرسائل الإدارية والسياسية والحربية ويصفون المعارك ويكتبون العهود والمواثيق وغير ذلك من الموضوعات .

ثانيا:الرسائل الإخوانية في الأندلس :

ويقصد بها تلك الرسائل التي تصور عواطف الكتاب وانفعالاتهم ومشاعرهم الخاصة وموضوعات هذا اللون من الرسائل كثيرة ومتعددة جعلها القلقشندي في مؤلفه : (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) في سبعة عشر نوعاً منها : التهاني - والتعازي - والعتاب - والشكوى- والاعتذار - والاستمناح - والشفاعة - والشكر- والشوق ، وغير ذلك من الموضوعات **وتنقسم هذه الرسائل إلى قسمين :**

١- الرسائل الإخوانية الذاتية :

وهي تتناول ما يدور بين الأصدقاء من عتاب وشوق وعزاء ومودة وما إلى ذلك من الموضوعات.

٢- الرسائل الإخوانية شبه الرسمية:

وهي تلك الرسائل التي تحتفظ بالبعد الاجتماعي بين الكاتب والمخاطب ، أي تلك الرسائل التي يتبادلها الخليفة أو الأمير أو الوزير مع مَن دونه في المنزلة الاجتماعية في أمور خاصة.

ويرى مؤرخو الأدب أن الرسائل الإخوانية في الأندلس كانت تزاحم الشعر وتطرق أبوابه. وليس ذلك غريباً إذ إنَّ معظم كبار الشعراء هم كبار المترسلين من أمثال ابن برد الأصغر وابن زيدون وابن عمار وابن طاهر وابن أبي الخصال وغيرهم من الكتاب.

ولعل من المناسب أن نشير إلى أن هذا النوع من الرسائل يتناول جانباً كبيراً من العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أفراد المجتمع الأندلسي والتي غالباً ما تقوم على المودة والصداقة والوفاء مما يعد جانباً مشرقاً من حياة المجتمع الأندلسي .

وتشغل الرسائل الإخوانية الذاتية في أدب الأندلس جزءاً كبيراً من مجموع تلك الرسائل التي حبَّرها الكتاب وقد عالجت موضوعات مختلفة منها على سبيل المثال :

١- رسائل التهنئة: فقد كان كثير من الكتاب الأندلسيين محافظين على معاني الصداقة والمودة بينهم فإذا ما أصاب أحد إخوانهم وأصدقائهم خير من اعتلائه منصباً أو اختياره لعمل جليل أو وهبه الله مولودا هنَّأه أصحابه من الكتاب وشاركوه أفراحه.

ومن نماذج هذا اللون من الرسائل تلك الرسالة التي كتبها ابن خفاجة إلى أحد أصدقائه يهنئه بالقضاء والوزارة فيقول:

(ومثلك من شهدت له مخايل الولاية باكتهال السيادة واكتمال السعادة وتُهَنَّأ الوزارة أن شدت بجيدك عراها ونيطت بنحرك حلاها وأنهما في تضافرهما لك وحسنهما بك لعقد تُنّي بعقد وعَلَمَان رُقِّمَا في بُرْد) ويختتم رسالته بمدح صديقه والإشارة إلى فضائله وصفاته التي جعلته أهلاً لاعتلاء هذين المنصبين الكريمين بقوله(وقد سامت الليالي ذاتك تجريباً وتهذيباً وقومت قناتك أنبوباً فأنبوباً حتى خلصت خلوص الذهب على

اللهب والدينار على النار وإنّ أفقاً أنت بدر كماله لينطح السماء بمنكبه ويزحف تحت راية الفجر والفلج موكبه) .

٢ـ رسائل العتاب والاعتذار : يمثل العتاب والاعتذار صورة من صور المودة والصداقة وأية من آيات الوفاء بين الناس وتتمثل رسائل العتاب في تلك الرسائل التي تدور حول عتاب الكاتب لمخاطب في أمر ساءه منه فأوجب عتابه له وتتباين صور العتاب بين اللين والرقة والقسوة والشدة وذلك بحسب نفسية الكاتب وحالته والغرض الذي استثارة فدبَّج رسالته فيه وما فيها من معاني الصداقة والمودة والألفة ومن ذلك ما جاء في رسالة لابن برد الأصغر حيث يقول معاتباً صديقه (أظلم لي جو صفائك وتوعرت عليّ أرض إخائك وأراك جلد الضمير على العتاب غير ناقع الغلة من الجفاء فليت شعري ما الذي أقسى مهجة ذلك الود وأذوى زهرة ذلك العهد عهدي بك وصلتنا تفرق بين اسم القطيعة ومودتنا تسمو على صفة العتاب ونسبة الجفاء واليوم هي آنس بذلك من الرضيع بالثدي ....)

ومن رسائل العتاب التي تركز على المودة والألفة تلك الرسالة التي كتبها ابن شهيد إلى مجاهد العامري يعاتبه فيها على إهماله للصداقة التي كانت بينهما بسبب انشغاله بالسياسة وتصريف أمور الدولة يقول(كنا قبل أن ترمي بنا النوى مراميها وتلقي الخطوب علينا مراسيها تربي صحبة وحليفي صبوة قد تخلينا عن الأنساب وانتسبنا إلى الآداب إذ ذاك حذق والملتقى كثب فإذا شمخ بأحدنا مارن ثار به كمد ساكن بعتب على زمن وتقصير بإرادة تعاطينا كأس الشكوى وتجاذبنا حبل البلوى ثم ألقت الأيام علينا بكلكل وأناخت من فوقنا بجران فنثرتنا بكل فج عميق وأفق سحيق)

٣ـ رسائل المديح : لقد احتل موضوع المديح مكانة عظمى في أدب رسائل الأندلس وهو يندرج في مجموعتين :

١* مديح الإخاء والمودة والصداقة وما يتعلق بها والتعبير عن المشاعر الصادقة والعواطف النبيلة التي تجمع بين الأصدقاء

٢* يتمثل في مدح الأمراء والوزراء والقواد والتودد إليهم على غرار ما كان يفعل الشعراء .

ولقد دارت مدائح الكتاب حول الصفات التي كانت تعتبر في ذلك القرن أمهات الفضائل وهي الكرم والجود والصدق والحمية والشجاعة والإباء وقد يضاف إليها فصاحة اللسان وقوة البيان.

ومما جاء في مدح الأصدقاء والتودد إليهم ما كتبه أبو القاسم بن الجدي حيث ركز على الأخلاق الفاضلة والشمائل الرفيعة التي تحلّى بها صديقه فهو (حامل آداب ومعارف ولابس من خلع الفضل مطارف ومتميز بفضول محاسن منحت جمالها ومتفرد بخواص فضائل جمعت كمالها) .

كما امتدح كتاب غيرهم من الأدباء والعلماء والكتاب وذلك يدل على مبلغ إعجابهم بالأدب والعلم وصناعة الكتابة وفضل العلماء فقد امتدحوا العلماء والمفكرين وبينوا قوة بيانهم وعذوبة ألسنتهم وروعة أقلامهم فهذا أبو محمد بن غانم المخزومي يمدح صديقه أبا الحسن الحصري برسالة فيها كثير من التقدير .

وقد عبرت الرسائل الإخوانية في العصر الأندلسي عن مشاعر الكتاب وعواطفهم في الموضوعات التي عبروا فيها وكانت صورة واضحة للحياة الأدبية التي عاشها الكتاب حيث وطدوا من خلالها علاقاتهم وأبانوا عن أدبهم وبلاغتهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

النصوص الأدبية

قال المُعْتَمِد بن عَبَّاد :

غَرِيْبٌ بِأَرْضِ المَغْرِبَيْنِ أَسِيْرُ — سَيَبْكِي عليه مِنْبَرٌ وَسَرِيْرُ
وَتَنْدُبُهُ البِيْضُ الصَّوَارِمُ وَالقَنَا — وَيَنْهَلُّ دَمْعٌ بَيْنَهُنَّ غَزِيْرُ
إِذَا قِيلَ فِي (أَغْمَاتَ) قَدْ مَاتَ جُوْدُهُ — فَمَا يُرْتَجَى لِلْجُوْدِ بَعْدُ نُشُوْرُ
مَضَى زَمَنٌ وَالمُلْكُ مُسْتَأْنِسٌ بِهِ — وَأَصْبَحَ مِنْهُ اليَوْمَ وَهْوَ نُفُوْرُ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً — أَمَامِي وَخَلْفِي رَوْضَةٌ وَغَدِيْرُ
بِمَنْبَتَةِ الزَّيْتُوْنِ مَوْرُوْثَةِ العُلَى — يُغَنِّي حَمَامٌ أَوْتَرِنُّ طُيُوْرُ
بِزَاهِرِهَا السَّامِي الذُّرَى جَادَهُ الحَيَا — تُشِيْرُ الثُّرَيَّا نَحْوَنَا وَنُشِيْرُ
وَيَلْحَظُنَا الزَّاهِي وَسَعْدُ سُعُوْدِهِ — غَيُوْرَيْنِ وَالصَّبُّ المُحِبُّ غَيُوْرُ
تَرَاهُ عَسِيْراً لايَسِيْراً مَنَالُهُ — أَلا كُلُّ مَا شَاءَ الإِلَهُ يَسِيْرُ

القائل :

المعتمد بن عباد ،أبو القاسم محمد المعتمد بن عباد . وُلِدَ سنة ٤٢٣ هـ بمدينة (بَاجَّة) إحدى مدن غرب الأندلس . وكان أحد أقوى ملوك الأندلس في عهد ملوك الطوائف حيث تولّى (إشبيلية) بعد أبيه المعتضد ، وعُرِفَ المعتمد بفروسيته وكرمه ، وكان شاعراًمُجيْداً، نظم الشعر في أيام ملكه وفي أثناء مِحْنَتِه عندما أسَرَهُ قائد المرابطين (يوسف بن تاشفين) واستولى على حكم ملوك الطوائف وأقام دولة المرابطين بالأندلس. فعاش المعتمد بعدها أسيراً مُكَبَّلاً بالأغلال في مدينة (أَغْمَات) جنوب غرب مدينة (مُرّاكش) حيث تُوُفِّي هناك سنة ٤٨٨ هـ .

مناسبة القصيدة :

نظم المعتمد هذه القصيدة وهو في أسْرِهِ بمدينة (أَغْمَات) بعد أنْ سَجَنَهُ يوسف ابن تاشفين حيث تحولت حياته من نعيم وترف إلى حُزْنٍ وألَمْ فقال هذه القصيدة يشكو حاله ويتذكر أيامه حين كان ملكاً على (إشبيلية وقرطبة) أيام مُلْكِهِ وَعِزِّهِ وما آل إليه الحال بعد ذلك

قال ابن زيدون :

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدُهَا ... مَحْضُ العِيَانِ الذي يُغْنِي عن الخَبَرِ

لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابِي كَبْرَةٌ وَأَرَى ... بَرْقَ المَشِيْبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعَرِ

قَبْلَ الثَّلاثِيْنَ إذْ عَهْدُ الصِّبَا كَثَبٌ ... وَلِلشَّبِيْبَةِ غُصْنٌ غَيْرُ مُهْتَصَرِ

هَا إنَّهَا لَوْعَةٌ فِي الصَّدْرِ قَادِحَةٌ ... نَارَ الأسَى وَمَشِيْبِي طَائِرُ الشَّرَرِ

حَوَادِثُ اسْتَعْرَضَتْنِي مَا نَذِرْتُ بِهَا ... غَرَارَةً، ثُمَّ نَالَتْنِي عَلَى غِرَرِ

لا يُهْنِئُ الشَّامِتَ المُرْتَاحَ خَاطِرُهُ ... أنِّي مُعَنًّى الأمَانِي ضَائِعُ الخَطَرِ

هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ الأرْضِ عَاصِفَةٌ ... أمِ الكُسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ

إنْ طَالَ فِي السِّجْنِ إيْدَاعِي فَلا عَجَبٌ ... قَدْ يُوْدَعُ الجَفْنَ حَدُّ الصَّارِمِ الذَّكَرِ

وَإنْ يُثَبِّطْ أبَا الحَزْمِ الرِّضَا قَدَرٌ ... عَنْ كَشْفِ ضُرِّي فَلا عَتْبٌ عَلى القَدَرِ

قَدْ كُنْتُ أحْسَبُنِي وَالنَّجْمَ فِي قَرَنٍ ... فَفِيْمَ أصبَحْتُ مُنْحَطّاً إلَى العَفَرِ

هَبْنِي جَهِلْتُ فَكَانَ الجَهْلُ سَيِّئَةً ... لا عُذْرَ مِنْهَا سِوَى أنِّي مِنَ البَشَرِ

القائل :

أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون ، ينتهي نَسَبُه إلى بني مخزوم القرشيين ، وُلِدَ في (قرطبة) سنة ٣٩٤هـ ، وكانت أسرته ذات مكانة اجتماعية مرموقة ؛ فأبوه من فقهاء (قرطبة) الكِبَار، وجَدُّه مِمَّن تولوا القضاء في تلك البلاد ، وقد تلقى تعليمه على يدي والده وعدد من الأساتذة منهم أبو بكر النحوي ، فكان ابن زيدون مُتقدِّما في علوم العربية وفي رواية الشعر وكُتُب الآداب ؛ فَنَظَم الشِّعْر وذاع صِيْتُه وتفوَّق على شعراء عصره ونال منزلة عند بني جهور فنال وزارة الكتابة ثم نال وزارة السِّفارة ولُقِّب (بِذِي الوزارتين) ، ثم انتهى به المطاف أنْ تآمر عليه الوشاة فتكالب عليه الحُسَّاد فأوْغَرُوا صَدْر أبي الحزم بن جهور عليه فأوْدَعَه السِّجْن فظل كذلك حتى فَرَّ من السجن وانتقل إلى المعتضد بن عَبَّاد في(إشبيلية) حيث أكرمه ونال عنده منزلة عالية وقد تُوفِّي ابن زيدون سنة ٤٦٣هـ.

مناسبة القصيدة :

ابن زيدون عَبَّر عَمَّا يَجِيْشُ في نفسه وهو في السجن في (قرطبة) عندما سَجَنَهُ أميرها أبو الحزم بن جهور ، وجعله يعاني صُنُوف الألم والأسى بسبب كَيْد الوشاة الحاسدين الذين تآمروا عليه وسبَّبُوا له الأذى فكان أنْ دخل السجن وبدأ يكتب قصائده الشعرية إلى أبي الحزم ومنها هذه القصيدة .

قال ابن المُنَخَّل الشِلْبي :

فَتَحْتُمْ بِلادَ الشَّرْقِ فَاعْتَمِدُوا الغَرْبَا ... فَإنَّ نَسِيمَ النَّصْرِ بِالفَتْحِ قَدْ هَبَّا

أصَرْتُمْ إلَيْهِ الخَيْلَ وَهِيَ أجَادِلٌ ... فَسَالَتْ بِكُم بَحْرَاً وطَارَتْ بِكُمْ رُكْبَا

رَمَيْتُمْ بِهَا مِثْلَ السِّهَامِ فَأصْبَحَتْ ... كُمَاتُهُمُ صَرْعَى ، وأمْوالُهُمْ نُهْبَا

أتَوْكُمْ يَجُرُّون الحَدِيْدَ سَوَابِغَاً ... كَأنَّهُمُ البَحْرُ الغَمَالِطُ إذْ عَبَّا

وَظنّوا وَفِي الظَّنِّ الجَهَالَةُ أنَّهُمْ ... يَفُلُّونَ من أجْنَادِكَ الصَّارِمَ العَضْبَا

فَلَمَّا تَلاقَيْتُمْ وبَيَّنَتِ الوَغَى ... تَولّوا وقَدْ طَارَتْ قُلُوبُهُمُ رُعْبَا

أظَلَّتْهُمُ البِيْضُ الصَّوارِمُ والقَنَا ... فَكَانَتْ لَهُم رَفْعَاً وكَانُوا لها نُصْبَا

وقَادَتْهُمُ تِلْكَ السُّيُوفُ إلى الرَّدَى ... ومَا غَادَرَتْ سَهْلَ القِيَادِ وَلا صَعْبَا

ورَامُوا فِرَارَاً والرِّمَاحُ تَنُوشُهُمْ ... فَمَا قَطَعُوا فَجَّاً ولا سَلَكُوا شِعْبَا

وخَرُّوا جَمِيْعَاً هَامِدِيْنَ كَأنَّهُمْ ... نَدَامَى تَسَاقَوا بَيْنَهُمْ أكْؤُسَ الصَّهْبَا

لَقَدْ حَكَّمَتْ فِيْهِمْ ظُبَا الهِنْدِ رَأيَهَا ... تُقَتِّلُهُمْ ضَرْبَاً وتَأسِرُهُمْ سِرْبَا

وَكانُوا لكُمْ جُنْدَاً فَصَارُوا غَنِيْمَةً ... كَذَلِكَ مَنْ يُزْهَى بِآرَائِهِ عُجْبَا

القائل :

أبوبكر، محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن المُنَخَّل المهري الشلبي ، نسبة إلى (شِلب) مدينة جنوب غرب الأندلس ، حيث وُلِدَ فيها الشاعر سنة ٤٤٠ هـ ، ثم انتقل إلى أفريقيا واتصل بالموحدين هناك منذ قيام دولتهم ومَدَحَهُم بقصائد كثيرة ، وكان ابن المنخل

الشلبي بارعاً في النظم حيث طَرَقَ أغراض الشعر الكثيرة كالوصف والحماسة والرثاء والزهد . تُوفّي سنة ٥٦١هـ ، بعد أن عُمِّر ما يزيد على ١٢٠ عاماً.

مناسبة القصيدة :

في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥هـ عَبَرَ عبدالمؤمن بن علي - أول سلاطين الموحدين - البحر من (سِبْتَة) إلى (جبل طارق) بعد أن حكم بلاد إفريقيا وانتقل إلى الأندلس ليدافع عن المدن الأندلسية التي كان الأسبان يُهددونها بالاستيلاء عليها ، وقد مَدَحه كثير من الشعراء والخطباء في المعسكر في جبل طارق . ومن أولئك الشعراء الذين مدحوه أبوبكر بن المنخل في هذه القصيدة التي صور فيها إحدى المعارك التي خاضها قائد الموحدين ، وكيف انتصر فيها على خصومه .
وهذه القصيدة معارضة لقصيدة المتنبي البائية التي نظمها في سيف الدولة الحِمْداني سنة ٣٤١هـ ، والتي يقول مطلعها:

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وإنْ زِدْتَنَا كَرْبَا ... فَإنّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ للشَّمْسِ والغَرْبَا

قال ابن زيدون

أضْحَى الثَّنَائِي بَدِيْلاً مِنْ تَدَانِيْنَا ... وَنَابَ عَنْ طِيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيْنَا
أنَّ الزَّمَانَ الذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا ... أُنْسَاً بِقُرْبِهِمُ ، قَدْ عَادَ يُبْكِيْنَا
غِيْظَ العِدا مِنْ تَسَاقِينَا الهَوَى فَدَعَوا ... بِأنْ نَغَصَّ ، فَقَالَ الدَّهْرُ آمِيْنَا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُوداً بأنْفُسِنَا ... وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولاً بِأيْدِيْنَا
وَقَدْ نَكُونُ ، وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا ... فَاليَومَ نَحْنُ ، وَمَا يُرْجَى تَلاقِيْنَا
يَالَيْتَ شِعْرِي ، وَلَمْ نَعْتُبْ أعَادِيَكُمْ ... هَلْ نَالَ حَظَّاً مِنَ العُتْبَى أعَادِيْنَا
بِنْتُمْ وَبِنَّا ، فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقَاً إلَيْكُمْ ، وَلا جَفَّتْ مَآقِيْنَا
نَكَادُ حِيْنَ تُنَاجِيْكُمْ ضَمَائِرُنَا ... يَقْضِي عَلَيْنَا الأسَى لَوْلا تَأسِّيْنَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمُ أيَّامُنَا ، فَغَدَتْ ... سُوْدَاً ، وكَانَتْ بِكُمْ بِيْضَاً لَيَالِيْنَا
وَاللّه مَا طَلَبَتْ أهْوَاؤنَا بَدَلاً ... مِنْكُمْ ، وَلا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أمَانِيْنَا
يَا سَارِيَ البَرْقِ غَادِ القَصْرَ وَاسْقِ بِهِ ... مَنْ كَانَ صَرْفَ الهَوَى وَالوُدَّ يُسْقِيْنَا
وَأسْأَلْ هُنَالِكَ : هَلْ عَنَّى تَذَكُّرُنَا ... إلْفَاً ، تَذَكُّرُهُ أمْسَى يُعَنِّيْنَا